غالي شكري

# من الأرشيف السري للثقافة المصرية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت - ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
ايار (مايو) ١٩٧٥
الطبعة الثانية
١٩٨٠

مقدمة

# الملف الممنوع من الفتح

في كتابه الصغير «عودة الوعي» طالب توفيق الحكيم بفتح ملفات السنوات العشرين الماضية ، كان يقصد اساسا ملف التجربة الناصرية .

ودعوة الحكيم مشروعة لاكثر من سبب .. فقد اعتمدت غالبية التحليلات لثورة ٢٣ يوليو على الشعارات المطروحة او على الوقائع المرئية او على المعرفة المباشرة ببعض الرجال .

وهذا كله ليس كافيا لتقييم مسيرة عشرين عاما ، وانما لا بد من التعرف على الكواليس قبل مشاهدة العرض النهائي على خشبة المسرح ، لا بد من معاينة المطبخ قبل رؤية الطعام على المائدة .

وفي كتابه «عودة الوعي» لم يفتح الحكيم ملفا واحدا من

الملفات الكثيرة التي يحتفظ بها .. فالرجل لم يكن بعيدا عن الاحداث بالقدر الذي يوهم به نفسه والآخرين . كان قريبا غاية القرب في بعض الفترات من غرفة العمليات . لذلك جاء اكتفاؤه بالدعوة الى فتح الملفات غريبا بعض الشيء ، وهكذا شارك — بوعي او دون وعي — في الحملة الضارية على التجربة التي كان بلا شك احد اركانها على صعيد الفكر والفن . حتى حين كان ينقد النظام لم يكن خارجه . اما الذين شنوا الحملة بعد رحيل عبد الناصر ، فقد كانوا جميعا وبغير استثناء من معسكر الثورة المضادة .

وكاد الخيط الرفيع ان يختفي بين ما اراده الحكيم وما يريده يوسف السباعي او صالح جودت او انيس منصور او موسى صبري .. ذلك ان الحكيم في كتابه الصغير ترك الباب مفتوحا امامهم جميعا ، لجأ الى التعميم واختيار التفاصيل الثانوية والوقائع الهامشية .

ولم يفتح الحكيم اخطر الملفات على الاطلاق ، ولم يشر بفتحه: ملف «اليمين المصري» الذي استطاع في أحيان كثيرة أن يحتوي الثورة من الداخل ، وان يفتح الثغرات الحقيقية التي نفذت منها الخطايا والجرائم ..

ان الناصريين الذين دافعوا عن ثورة ٢٣ يوليو بمنطق صوابها المطلق وخلوها من السلبيات يقعون في خطأ فادح .. وكذلك الذين ساووا بين الحكيم وبقية الذين هاجموا عبد الناصر . لقد كانت السلبيات في التجربة الناصرية ولا تزال من الحقائق التاريخية الدامغة .. وأهم هذه السلبيات هي الجيوب اليمينية في النظام، وقد ولد بعضها معه وانضم اليها البعض الآخر في هذه المحطة او تلك .

ولعل ابرز هذه الجيوب واوضحها كانت في حقل الثقافة والاعلام ، للطبيعة الخاصة التي يتميز بها هذا الحقل ، وهي انه يقع تحت الاضواء مباشرة ، ولطواعية السلعة الثقافية في التحول

والتخفي على غير الثبات النسبي والصلابة التي تميز الميادين الاقتصادية والاجتماعية .

ولا شك انه لدى كل مثقف مصري ملفه الخاص ، كمجموعة من الذكريات او الملاحظات او الاعترافات التي سجلها في ذهنه او على الورق في هذه المرحلة او تلك من مراحل الثقافة المصرية.

ولم يكن «عودة الوعي» نموذجا لهذا النوع من التسجيلات الخاصة التي عودنا عليها الحكيم في «زهرة العمر» و«سجن العمر» ، وانما كان منشورا مفتعلا لا يليق بكاتب كبير ان يضطر او ينزلق الى كتابته . والحق اننا لا زلنا ننتظر من توفيق الحكيم وغيره ان يكتبوا لنا ذكرياتهم الحقيقية التي تفسر لنا على الاقل اعمالهم الفكرية والفنية طيلة الحقبة الماضية . ان الافتعال في كتيب «عودة الوعي» هو انه يقف شاهدا مضادا لاعمال صاحبه السابقة على مدى عشرين عاما .

وربما كنت واحدا من ابناء الجيل الذي عاصر «المعركة» السرية والمعلنة بين مثقفي اليمين وبقية صفوف الثقافة الوطنية التقدمية . وقد اتيح لي في مختلف الظروف والمواقع ان اكون قريبا من الاحداث والشخصيات الصانعة لها . وهي احداث ومواقف تعرفها اغلبية المثقفين ، ولكن احدا لا يكتبها .. ربما لان العرف السائد هو عدم التعرض للاحياء ، اذا بادر احدهم الى «التذكر» ، ولأن الجميع ينتظرون موت الجميع ، فان الجميع لا «يتذكرون» .

وهذا الكتاب مجرد قطرة في بحر الخطايا والجرائم التي ارتكبها اليمين المصري ضد الثقافة والمثقفين .. فالملف الكامل لا زال ممنوعا من الفتح ، لأن الذين يملكونه ليسوا طرفا واحدا ، ولا يملك الفرد منا اكثر من بضعة اسطر او قليل من الصفحات .

وعلى من يريدون فتح ملف ثورة يوليو ان يفتحوا كل الملفات..

حينذاك سوف تتبدى حقيقة اليمين المصري الذي يطالب الان بمراجعة الماضي ومناقشته .. وسيكون الطرف الوحيد الذي

يحرق الملفات ويطويها للابد ، لانه كان ولا زال المتهم بل المجـــرم الوحيد .

فاكتبوا الان قبل غد ، يا من تعرفون اكثر مني .. اكتبوا قبل ان يجف المداد في عروق الايدي ★ .

**غالي شكري**

بيروت ــ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٥

---

★ يهم الكاتب ان يشير الى ان الفصل الخاص بالشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري في هذا الكتاب انما يقصد به ابراز «المنـــاخ» الثقافي في مصر ، والذي استدرج شاعرا كبيرا الى منزلقات الخطأ .

# الأدباء يعقدون مؤتمر جنيف

**الزمن : شتاء ١٩٧٢ .**
**المكان : الطابق السادس بجريدة «الاهرام» بالقاهرة .**
**وصوت توفيق الحكيم على الطـــرف الآخر من سماعـــة التليفون ، يقول لي بصوت عال ولكنه متقطع :**
**ـ اسمع .. انا بعتلك آنسة ظريفة ، مصريـــة من امريكا ، تريد ان تتعرف عليك وعلى الجماعة فـــي «الطليعة» .. بتحب الثقافة والسياسة .. دكتورة من «هارفارد» .. يا الله يا عم .. إبسط !**

وظننت انها احدى مداعبات الحكيم ، ردا على المشاغبـــات التليفونية الدائمة بيننا ، ولكني بعد أقل من دقيقة واحدة رأيت أماميفتاة لها وجه طفلةوجسد متضخم.. سريعة الكلام بالانجليزية ركيكة الفهم للعربية ، لا تطيل عبارات التعارف الاولية ، وكأنها صاحبة بيت تجلس قائلة بلا مبالاة لدهشتك :
ـ انا سناء حسن .. أعد دراسة للجامعة حول مواقـــف

الثقافة المصرية المعاصرة من اهم القضايا التي تعني الانســــان المصري وتقلق مصيره حتى ولو لم يكن واعيا بها ..

ولا ترد عليك حين تقاطعها مستفسرا ماذا تشرب ، وانمــــا تستمر كطوفان بلهجة اميركية حاسمة :

ـ قابلت المسؤولين السابقين والحاليين : محمود فوزي ، عزيز صدقي ، زكريا محي الدين .. الخ .

ويقاطعنا صوت التليفون ، واقول لها :

ـ مكتب هيكل يطلبك .. موعدك معه الان .

بعربية مكسرة تردد كما لو ان الامر لا يعنيها :

ـ معلش .. بعدين .. المهم، هناك أعداد كثيرةمن «الطليعة» احتاجها .. أريد كتبك ، خصوصا المصادرة ، لدي اسئلة اطلب منك جوابا عنها ...

ثم ..

دارت على جميع الزملاء و«الاسطوانة» هي هي .. اقبلت حوادث الطلبة والمثقفين فزادت سناء من تحركاتها رغم العــــرج الخفيف في احد ساقيها الثقيلتين بالطبيعة .

وسألت عنها ..

قيل لي انها ابنة احد باشوات مصر السابقين وكان سفيرنا في واشنطن ايام الملك . وقد ولدت في اميركا وعاشت . وهي تزور مصر للمرة الاولى بتوجيه من استاذها الصهيوني المعروف «صفران» .

ولكن هذا كله لم يضع يدي على «المفتاح» السحري الــــذي يفتح لها ابواب الكبار في مصر .

ثم سافرت انا الى بيروت ، وتركتها بالقاهرة ، ولم يعــــد يعنيني من امرها شيء ..

حتى فاجأني احد الاصدقاء بأن «تحسين بشير» ـ مساعد المستشار الصحفي لرئاسة الجمهورية حينذاك ـ قد تزوج ، فلما

سألته من تزوج هذا العازب الخالد ، اجابني «سناء حسن» !

دهشت فترة قصيرة ـ لفارق السن بينهما فقط ـ وسرعان ما نسيت الموضوع .

الى ان كانت المفاجأة الحقيقية ، واذا «بالنيويورك تايمز» تنشر مقالا لسناء حسن في مكان بارز مرفقا بصورتها (الوجه فقط طبعا ) . .

كانت المفاجأة بالنسبة لي ان تفرد الصحيفة الامريكية الكبرى حيزا ـ اي حيز ـ لقلم بنت مصرية مغمورة لا يعرفها احد . . مجرد طالبة ذكية بالدراسات العليا باحدى جامعات الولايات المتحدة استقبلها السياسيون المصريون ـ ربما ـ بهذه الروح لا اكثر .

ولكن مقال «النيويورك تايمز» كان مثيرا . . وكأنه لكاتب عتيد متمرس على المصطلحات السياسية والخبرة بالفكر السياسي. راحت سناء تقول :

● آن الاوان ليفهم العرب ان اسرائيل «امر واقع» لا بد من الاعتراف به . . لا دبلوماسيا فحسب ، بل ثقافيا وتجاريا وسياحيا . وعلى العرب ان ينهلوا من المعين الحضاري لاسرائيل لا من الغرب فهي اقرب .

● آن الاوان ليفهم العرب ان الحروب لا تحل المشاكل المعلقة بينهم وبين جارتهم المتفوقة ديموقراطيا وحضاريا، وانما «السلام» هو القدر الوحيد الذي يجدر بهم ـ اي العرب ـ الوعي به بدلا من سلوك الطريق «الاوديبي» الاعمى .

● لقد اخطأ العرب في حق الحضارة والتقدم والتاريخ برفضهم التقسيم عام ١٩٤٧ ولا زالوا يخطئون بالارهاب الهمجي الذي يشنونه بين الحين والآخر سواء كان ارهابا منظما بواسطة الجيوش او ارهابا فوضويا بواسطة المنظمات غير المسؤولة .

● والحل الواقعي هو توطين الفلسطينيين في الدول العربية

وقيام كيان رسمي لهم ضمن المملكة الاردنية والاعتراف العربي الشامل بالدولة اليهودية .

بعد هذا المقال مباشرة اهتمت الاذاعات ومحطات التلفزيون الاميركية بسناء حسن اهتماما مثيرا ، وعقدت بينها وبين المثقفين اليهود لقاءات حية بالميكروفون وعلى الشاشة الصغيرة ودعتهـــا الجامعات لالقاء المحاضرات حول افكارها ، واصبحت «نجمة» في فترة قياسية ..

وذات صباح ، حملق القنصل الاسرائيلي في نيويورك فـــي جواز السفر المصري المقدم اليه من «سناء حسن» تطلب تأشيرة دخول الى اسرائيل ..

وذات صباح آخر ، حملق ضابط اسرائيلي في مطار اللد في نفس الجواز ..

ودخلت سناء حسن اسرائيل ..

وكان التعليق المصري الوحيد على كل هذا الضجيج هو اعلان تحسين بشير انه طلقها ..

ولكن احدا في مصر لم يراجع تحركات سناء حسن الواسعة داخل مصر في شتاء ١٩٧٢ وربيع ١٩٧٣ ..

لم ينتبه احد الى طبيعة «المهمة» ـ الثقافية !! ـ التي فتحت لها كل الابواب المغلقة ..

وكان احد هذه الابواب ارشيف جريدة «الاهرام» ، فقد كان في هذا الارشيف كنز لا يخطر على بال ، ضمته حقيبة سنـــاء حسن بهدوء شديد ..

هذا الكنز هو ملف الندوة الكاملة التـي جرت بين الرئيس معمر القذافي ومجموعة من المـــع الكتاب المصريين .. وكانت «الاهرام» قد نشرت ملخصا حول القسم الاول من الندوة عــن الاسلام والشيوعية والراسمالية . ولكن القسم الثاني لم ينشر الى الان ، ويدور حول مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي . وكان

سبب عدم النشر ان اثنين من كبار الكتاب المصريين ــ هما توفيق الحكيم وحسين فوزي ــ قالا بالحرف الواحد انهما يريان الصلح مع اسرائيل هو المخرج الوحيد من الازمة !!

ورأى هيكل في ذلك الوقت انه لا ضرورة لنشر هذا الكلام الذي فاجأ القذافي مفاجأة صاعقة !!

والسؤال الان أوجهه الى استاذنا توفيق الحكيم : لماذا كنت نشيطا في تعريف سناء حسن بالمثقفين المصريين يا صاحب «عودة الوعي» ؟ لماذا ؟ الم يئن الاوان لتروي القصة من البداية .. فالارجح ان سناء حسن سوف تكتب النهاية حين تنشر محاضر الندوة التي اعلنت فيها بصراحة تحسد عليها ( انت ورفيق نضالك حسين فوزي) ان الصلح مع اسرائيل هو الحل الوحيد.. واما الفلسطينيون فليحلوا مشكلتهم بأنفسهم !!

***

والفلسطينيون يحلون مشكلتهم بأنفسهم ، ولكن بعضهم ممن لمعت وجوههم داخل الارض المحتلة على نيران «المقاومة» . ورحنا ننحت لهم التماثيل في اعظم ميادين العرب : قلوبهم ، هؤلاء كانوا على موعد مع سناء حسن . انها وقد عثرت على «كنز» الندوة الاهرامية في مصر كوثيقة ترفعها في وجه «الصقور» داخل اسرائيل قائلة ان «أكبر المثقفين المصريين» يطلبون الصلح معكم من زمان ، من قبل الحرب .. ها هي تذهب الى الطرف الآخر «الفلسطيني» الذي ينشد الاناشيد فتتغنى بها الامة العربية من الخليج الى المحيط .. انها في طريقها الى من يسمون انفسهم او يسميهم البعض «شعراء المقاومة» .

انها تذهب اليهم وفي يدها نسخة من مسرحية سميح القاسم «كيف رد الرابي مندل على تلاميذه» وهي المسرحية التي

ترجمت الى معظم لغات العالم الحية على «الستنسل» وكأنهـــا منشور ثوري . والمسرحية المذكورة عبارة عن مقال سياســـي مباشر مقسم الى ثلاثة أدوار : احدهما عربي «رضوان» والثاني اسرائيلي «شلومو» والثالث دولي «العالم» .. يقتتل العربـــي والاسرائيلي حين يدعي كلاهما ملكية الحديقة «فلسطين» ويتدخل «العالم» مرة بامداد الطرفين بالسلاح ومرة اخرى بأغصـــان الزيتون . ويتلاحم العربي والاسرائيلي مرة جدا وأخرى لعبا . وينتهي بهما الامر لان يستمعا الى نصيحة «العالم» القائلة :

«حوار عقيم لا طائل من تحته ، كلاكما هنا ، حقيقة واضحة وامر واقع . والسؤال الهام هو كيف يمكن العمل على ان تكون اقامتكما هنا طيبة وهادئة ومثمرة . هذا هو السؤال» .

والعربي – رضوان – يحب راحيل ودافيد ليثبت انه ليس معاديا للسامية ، ويجيد العبرية ايضا . يحب راحيل لزرقـــة عينيها ، ويحب دافيد لانه يؤمن بوحدة الطبقة العاملة سواء كان العامل يهوديا او عربيا .

وسميح القاسم في هذه المسرحية ليس مجرد مؤلـــف مسرحي ، انه وزملاؤه «شعراء المقاومـــة في الارض المحتلة» !! يشتغلون بالسياسة ، وما يقوله ليس رأيا فرديا وانما هو تيار يدعو صراحة الى الاعتراف بالكيان الصهيوني من جانب العـــرب الذين يتحتم عليهم القاء السلاح والاحتكام الى «العقل» .. وهو التيار الذي يتهم المقاومة الفلسطينية علنا بتخريب فرص السلام. ففي «نداء عاجل الى شعوب المنطقة والعالم» كتب حنا ابراهيـم وسميح القاسم وعصام العباسي وسالم جبران ونزيـــه خير ، ونشرته جريدة«الاتحاد» التي تصدر بالعربية، بتاريخ ٧–٦–١٩٧٤ ما نصه :

«نحن الموقعين أدناه ، من الكتاب العرب واليهود ، مواطني اسرائيل ، نتوجه بهذا الى شعوب المنطقة والعالم للعمل معـــا

وبصورة فردية ، على ايقاف جميع اعمال الارهاب والعنف نهائيا، ضد النساء والاطفال خاصة وضد السكان المدنيين عامة ، ونقرر:

١ ــ ان استعمال طرق الارهاب ، الشخصية او الجماعية ، في المنطقة او في العالم ، لنيل اهداف ــ ايا كان نوعها ــ يسقط عن صاحبه حق تمثيل المصالح القومية والسياسية والدولية والاقليمية .

٢ ــ انه لا يمكن لاية قضية من قضايا المنطقة ان تحل عن طريق العنف او القتال .

٣ ــ ان المنظمات المسلحة والحكومات مناشدة بهذا ان تتخلى عن كل استعمال للعنف ضد المدنيين وان تتهيأ لمحادثات سياسية . وبعد ان تحقق المنظمات والحكومات هذا الشرط ــ فان الاطراف مدعوة الى الاعتراف احدها بالآخر ولابتدار محادثات السلام .

٤ ــ ان الحكومات او الجيوش او المنظمات المسلحة التي تقيم عن قصد اهدافا عسكرية وسط تجمعات السكان المدنيين ، مسؤولة بصورة مباشرة عن كل اصابة تلحق بمدنييها ، بمستوى ليس دون مستوى مسؤولية اي قوة معادية تستهدفها باصابتها حيثما كانت .

٥ ــ ان جميع حكومات المنطقة مدعوة الى الاعتراف بحق جميع شعوب المنطقة ودولها في تقرير مصيرها ، وبحقها في العيش بسلام وأمن ــ وفي مقدمة ذلك حق الشعب اليهودي في دولة اسرائيل ، والشعب العربي الفلسطيني في دولته .

٦ ــ ان هذه المنطقة تعاني من هستيريا سنين طويلة ، حيث اصبحت الاعمال التحت ــ بشرية فيها جزءا لا يتجزأ منها . وهذه الهستيريا ناتجة ــ مما نتجت عنه ــ عن الصورة التي تدار بها الشؤون السياسية في هذه المنطقة على جانبي الحدود .

٧ ــ حل هذه القضية بصورة جذرية لن يبدأ الا حين يبتدر

حوار مباشر وجوهري بين الشعبين ، لوضع حد للنزاع الطويل واللاضروري هذا .

٨ ـ هذا الحوار الجذري يمكن ان يبتدر اليـــه بالفعل ، بمعونة جماعة واحدة معينة ، على جانبي الحدود هي : الكتّاب والمثقفون العرب واليهود .

٩ ـ ان على حكومات المنطقة ان تساعد الكتاب والمفكرين ، أفرادا وجماعات ، بالمبادرة لعقد لقاءات اسرائيلية عربية في دول محايدة لاعداد الخلفية السيكولوجية والمناخية ـ بعد فصـــل القوات ـ لنجاح مؤتمر جنيف » .

وكان البيان قد تصدرته هذه السطور :

«يرجى من الكتاب والمفكرين في اسرائيل وفي الدول العربية وفي العالم اجمع ـ الذين يودون الاعراب عن تجاوبهم مع هـــذا النداء او الانضمام اليه او المساعدة على نشره ، وكذلك ممن يود الاسهام في تمويل نشر هذا الاعلان في صحف اخرى ، فـــي اسرائيل وخارجها ، ان يتوجهوا الى العنوان التالـــي : ..... تل ابيب» ✱ .

وليس البيان على هذا النحو منشورا سريا ولا مقالا عابرا ، وانما هو على حد تعبير محمود درويش «اعلان عن بداية نشاط عالمي لاستقطاب اكبر قدر من تأييد الاهداف التي تضمنها النداء العاجل » .

ولم يكن غريبا ان تطلب سناء حسن ان تكون اول فقرة في برنامج زيارتها في اسرائيل هو مقابلة سميح القاسم و«رفاقه» .. بل ان اول اجتماع عمل كان لقاء بين الموقعين على البيان مـــن

---

✱ تخلي سميح القاسم في ما بعد عن توقيعه على هـــذا البيان بعد ان استنكرته جريدة «الاتحاد» الشيوعية كما أدانه الشاعر توفيق زياد .

الفلسطينيين والاسرائيليين . وليس هذا كله ، مهما !

وانما البيان قد وجد طريقه فورا الى الاستجابة .. نشرته وطبعته صحف سرية ومطابع تحت الارض ، واذاعته مختلف الراديوهات التي يعرف موجاتها القليلون .

ولكن اول الغيث كان من القاهرة ، وكان غيثا علنيا الى اقصى الحدود ..

ولم يجيء الغيث من توفيق الحكيم الذي كان مشغولا بالسؤال عن كيفية تحويل ٤٠ الف ليرة لبنانية ثمنا لكتابه «عودة الوعي» الذي يسب فيه عهد جمال عبد الناصر ..

ولم يجيء ايضا من حسين فوزي الذي كان مشغولا باختيار عنوان «ملاك الارهاب» كتابه الجديد عن عبد الناصر ايضا ..

لم يجيء الغيث من احدهما رغم انهما «على الخط» مع البيان «الفلسطيني» ــ الاسرائيلي المضاد للمقاومة والداعي الى الصلح.

وانما هطل الغيث من كاتب طلب الراحة مؤخرا من المناصب الادارية ليتفرغ للكتابة ، ويبدو انه طلب الراحة من عناء «الموقف السياسي» فآثر «امس واليوم وغدا» .

جاء اول الغيث من احسان عبد القدوس. ولست اعرف ما اذا كان احسان احد الذين قابلتهم سناء حسن بين أواخر (٧٢) واوائل (٧٣) وما اذا كانت هناك علاقة شخصية تربطه ببعض «شعراء المقاومة في الارض المحتلة» ..

ولكن الشيء المؤكد ان هناك تطابقا مثيرا بين أولى مقالات احسان التي نشرها في «اهرام» الجمعة (٢ــ٨ــ١٩٧٤) ومعظم الافكار التيوردت في بيان «المقاومين من اجل الاعتراف باسرائيل» سواء كانوا الشعراء الفلسطينيين او تلميذة هارفارد . كذلك فان احسان لم يحضر «ندوة الاهرام» التي شهدت حماس الحكيم وفوزي للصلح مع اسرائيل، ولكن المؤكد ايضا ان ما بينه وبينهما اكثر من توارد خواطر ..

.. فاحسان ، بطريقة اشبه ما تكون بأسلوب سميح القاسم في مسرحيته المذكورة اي بطريقة المقال السياسي المصاغ ادبيا ، كتب تحت عنوان «اين صديقتي اليهودية» قصة طريفة مهد لها بذكاء مرهف عن تجربته مع الخلق الفني ، وكيف ان هناك شخصيات واقعية توحي اليه بالفكرة او الراي الذي يريد ان يقوله في القصة او الرواية . ومن بين هذه الشخصيات «جلاديس» الفتاة اليهودية التي كانت جارته في العباسية منذ الطفولة الى الصبا .

وكما لو ان احسان يريد ان يفتح «ملفاته» امام احدى الجهات لطلب التبرئة من تهمة لم ينسبها اليه احد ، يذكرنا بقصته القديمة «بعيدا عن الارض» التي استلهم فيها شخصية جلاديس والبسها ثيابا اميركية يهودية ، واصبحت ـ في القصة ـ فتاة يهودية جميلة تجذب الى غرامها شابا عربيا من مصر . ويدور بين القلبين ـ او العقلين ؟ ـ حوار عنيف مؤداه ان الحرب بين اليهود والعرب تحول دون الحب . وقد جرب كلاهما ان ينسى الآخر ، رغم انها جندت في اسرائيل ، وجند هو في مصر . قبل ذلك قالت له : سأقتلك .

« قال :

ـ سأعفيك من قتلي .. سأقتلك اولا ..

ودفنت وجهها في عنقه وهمست :

ـ يا حبيبي ..

وافترقنا ..

ووقف بسلاحه على خط النار .. ان الرصاصة التي يطلقها قد تصيب ماريا ، والرصاصة التي تقتله قد تكون رصاصة ماريا .. ولكنه لا يريد ان يقتل ماريا ، انه يريد ان يقتل ساسون .. ساسون الذي استولى على ماريا ، في نيويورك وأرسلها لتجند في الهاجاناه .. يريد ان يقتل الصهيونية لا

اليهود .. وقتل .. وساهم في معركة اسدود ، ونال وساما .. وانتهت الحرب .
وبعد خمس سنوات ، سافر في عمله مرة اخرى الى نيويورك .. والتقى صدفة بماريا ، وسألها في دهشة :
ــ متى جئت الى نيويورك ...؟
وقالت :
ــ اني اقيم هنا ..
قال :
ــ منذ متى ؟
قالت :
ــ منذ خمس سنوات ..
قال :
ــ واسرائيل ؟
قالت في حدة :
ــ اني اميركية ..
ــ واسرائيل ؟
قالت وهي تنظر الى بوز حذائها :
ــ تركتها ..
قال وبين شفتيه ابتسامة شامتة :
ــ لماذا ؟
قالت ساخرة :
ــ لاني لا استطيع ان اقتلك ..»
نشر احسان هذه القصة عام ١٩٥١ اي غداة النكبة مباشرة. وهي رغم التزاويق العاطفية قصة سياسية ترى الحرب ــ اي حرب ! ــ اغتيالا للحب ، اي حب !
كانت «ماريا» وجها اميركيا لجلاديس اليهودية التي عرفها احسان في صباه والتي استوحى منها كما يقول ، العديد من

قصصه . ثم سافرت جلاديس عام ١٩٥٦ الى اسرائيل واكتسبت جنسيتها . ونساها احسان تماما .

الى ان كان هذا الصيف حين اراد ان يمضي اجازته بعيدا عن السياسة والاصدقاء والمعارف ، فاختار احدى الجزر في المحيط الاطلسي في موازاة الساحل الافريقي تدعى جزيرة «ماديرا» ..

وهناك رأى جلاديس (صدفة ايضا !) امراة في السادسة والخمسين ، تبيع الاحذية في احد المتاجر ، حصلت على الجنسية البرتغالية والفرنسية بالاضافة الى الاسرائيلية . ويدور بينهما هذا الحوار :

« قالت :

ـ لا يمكن .. اني اعرف اول سؤال ستواجهني به .. لماذا تركت مصر .. ان مجرد هذا السؤال يدمي ذكرياتي ..

قلت :

ـ لا .. لن اسألك لماذا تركت مصر ، ولكني اسألك .. لماذا لا تعودين الى مصر ..

قالت :

ـ انه سؤال مجاملة بالاسلوب المصري كأن تقول لاحد المارة اتفضل .. اتفضل شاي .. ولو تفضل لاحسست بنكبة تقع على راسك ..

قلت وشهوة التطلع واكتشاف الواقع تجتاحني :

ـ أنا لا اجامل .. اني اتمنى فعلا ان تعودي الينا ..

قالت وابتسامتها الضعيفة تنضح بالحسرة :

ـ اذن فقد تغيرت .. ليست هذه طبيعتك .. ولا طبيعة اي مصري .. هل تقبل عودة الزوجة الخائنة الى زوجها ..

قلت :

ـ قد لا تكون خائنة .. قد تكون قد اعتدي عليها او غرر بها .. المهم ألا تكون الخيانة من طبيعتها ..

قالت :
ـ وهل يقبلونني في مصر ..
قلت :
ـ لماذا لا يقبلونك ..
قالت :
ـ لاني يهودية ..
قلت :
ـ ان كيسنجر يهودي ، ورغم ذلك فهو صديق لنا كلنا ..
قالت :
ـ ان كيسنجر يتحرك بصفته الرسمية لا بصفته يهوديا .. انه اشبه ببائع في دكان ، يرحب بالزبون ويخدمه ولكن ليس على حساب صاحب المحل .. لو اشتريت مني حذاء الان فسأنتقي لك احسن ما عندي ، واضمن لك الا يكون واسعا ولا ضيقا ، ولكني اكثر حرصا على الا يخسر صاحب المحل سكودس واحدا (عملة ماديرا) .. هذا ما يفعله كيسنجر بينكم وبين اسرائيل .. وانا .. انا شيء آخر .. انا واحدة من الناس .. وكنت واحدة منكم في مصر .. ثم كنت واحدة من الناس في اسرائيل .. ومن ادراك .. ربما كنت احارب معهم ..

قلت لمجرد ان أشدها الى مزيد من الكلام :
ـ ولكن كيسنجر حارب مع اسرائيل ايضا ، كان هو الذي يضغط على وزير الدفاع الاميركي ليحارب معهم ، وكان نيكسون يؤيده .. ثم انتهت الحرب .. واصبح كيسنجر ونيكسون صديقين لنا .

قالت وابتسامتها الضعيفة تنقلب الى ابتسامة ساخرة :
ـ هل تعتقد ان الحرب انتهت ..

وتوقفت برهة عن الكلام .. لم يعد هذا الاسلوب ينفع في حديثي مع جلاديس ثم قلت :

ـ لا .. الحرب لم تنته ..
قالت :
ـ هل تستطيع ان تحدد متى تنتهي ؟
ـ لا .. لا احد يستطيع ..
قالت :
ـ اي ان الحرب قد تبدأ من جديد ..
قلت :
ـ ربما ..
قالت :
ـ واذا بدأت فأين يقف كيسنجر منها ؟
قلت :
ـ يحاول وقف اطلاق النار ليعود بنا الى الحرب السياسية..
قالت وابتسامتها الساخرة تتسع :
ـ كن اكثر صراحة معي .. ان كيسنجر سيحارب معنا .. أقصد مع اليهود ... آسفة ، أقصد مع اسرائيل .. قد يستقيل ليترك غيره يتحمل المسؤولية ، ولكنه لن يترك اسرائيل وحدها ابدا ..
وسكت !
وعادت تقول :
ـ اذا كان هذا هو كيسنجر الصديق .. فماذا تطلب مني انا ..
قلت كأني اهرب منها :
ـ لا شيء .. »
هذا هو نص الحوار الواقعي كما كتبه احسان عبد القدوس بنفسه . ولا فرق يكاد يذكر بين القصة «الفنية» التي كتبها منذ ربع قرن والقصة «الواقعية» التي يرويها الان ، سوى ان الزمن قد ترك بصماته على المرأة وعليه ، فلا غرام ولا هم يحزنون .

اي ان الرجل ، احقاقا للحق ، لم يتغير .. فهذا هو فكره حول الصراع العربي ـ الاسرائيلي منذ البداية . ولكن المشكلة الحقيقية التي تواجهنا مع احسان هو ان كل شيء قد تغير حتى وان لم يتغير هو . والمشكلة الثانية هي «التوقيت» الذي اختاره بعناية فائقة لنشر هذه الحكاية . والمشكلة الثالثة هي ان بعض ما جاء على لسان المراة يكاد يكون بالحرف هو راي عبد القدوس في كيسنجر ونيكسون وأميركا .

***

ماذا تغير ؟

تغير الفلسطينيون اولا ، فلم يعودوا «لاجئين» بل شعبا ومقاومة . تغير العرب ، وليس أدل من حرب أكتوبر على تغيرهم. تغير العالم فأصبح لقضيتنا اصدقاء واضحين وأعداء واضحين . المعسكر الاشتراكي وفي مقدمته الاتحاد السوفياتي هو الصديق الحقيقي ، حليفنا الاستراتيجي . والمعسكر الاستعماري وفي مقدمته الولايات المتحدة ، هو العدو الحقيقي والحليف الاستراتيجي لاسرائيل .

ولكن احسان يرى العكس . يرى اننا لا زلنا في «دوامة الحرب» وكأنها حلقة مفرغة بلا معنى . ولا يرى الفلسطينيين ومقاومتهم الثورية على الاطلاق . ولكنه يرى كيسنجر الصديق الذي يتصرف على نحو رسمي لا بصفته يهوديا . ولا يرى قوى التحرر والاشتراكية والاتحاد السوفياتي على الاطلاق . ولكنه يرى جلاديس وكأن لقاءهما هو المصير والقدر .

رؤية شيء او عدم رؤيته ، موقف .

وزمن الرؤية موقف .

ما هو موقف احسان عبد القدوس ؟

انه ببساطة شديدة يعقد مؤتمر جنيف الادبي ويجلس على مائدة واحدة مع سناء حسن وسميح القاسم والكتاب الاسرائيليين وكيسنجر وتوفيق الحكيم وحسين فوزي .

ويدير الحوار الذي لم يبدأ رسميا بعد في قصر الامم ..

يديره على صفحات الاهرام القاهرية والنهار اللبنانيـــــة والسياسة الكويتية ، وما خفي من الاذاعات والصحف الاجنبية .

يديره بمنطق الاعتراف والصلح ، بمنطق ادانة المقاومـــــة بتجاهلها ، بمنطق الهزيمة لا بمنطق السادس من اكتوبر ، بمنطق الصديق كيسنجر وادانة السوفيات ، بمنطـــق المثقف المصري المعزول في برج من العاج لا علاقة له بالجماهير العربية ..

وهو منطق أقلية ضئيلة لا تمثل الا نفسها ، ولكن الضجيج الذي تثيره بأقوى اجهزة الاعلام من شأنه ان يضخم الصوت .

الصوت «الآخر» لا الرأي الآخر ليس بالتأكيد صوتنا ..

ليس صوت مصر ، ولا فلسطين ، ولا الامة العربية ، وانما هو «النشاز» الذي يستوجب البحث عن اصلـــه ومصدره .. يستوجب المحاكمة !

و ...

كنت أزور صديقـــا في احـــد فنادق بيروت الكبيرة حين صادفني مراسل اجنبي اعرفه ابتدرني بقوله : سوف اعطيـــك سبقا صحفيا لا تحلم به هو فكرة لرسم كاريكاتوري : خـــط تليفوني يربط بين القاهرة واحدى العواصم الاخرى ، وفي احد طرفي الخط أمسك بالسماعة احسان عبد القدوس ، وكانت على الطرف الآخر سناء حسن تقول ما معناه باللهجة المصرية :

— جريدة الاهرام .. الو .. ايوه يا احسان .. اخبـــر اصدقائي ، يا ناس يا عواجيز هنئوني .. لقد اصبحت اجيـــد العبرية في مستوى سميح القاسم والله العظيم .

وهمس في أذني :

ـ لقد ادلى طالب اسرائيلي في هارفارد بتصريح قال فيه ان في حوزة سناء «وثائق» تؤكد انها ليست صاحبة الصوت الوحيد الذي ينادي بالصلح مع اسرائيل ، وانما هناك مجموعة من اكبر العقول في مصر تنادي بنفس الراي ..

وابتسمت في داخلي وتذكرت كل شيء .

تذكرت ايضا ما قد لا تعرفه سناء حسن .. تذكرت شابا مصريا كان طالبا في كلية الطب يدعى «وجيه غالي» وكان ينتمي الى احدى الحركات اليسارية ، ولكنه استطاع الهرب الى لندن. وهناك تلقفته احدى «الجهات» وكانت تعرف ميوله الصحفية وموهبته الادبية . واستطاعت ان تغريه بالسفر الى اسرائيل ، وعاد ليكتب مجموعة من التحقيقات المثيرة لجريدة «الصنداي تايمز» الى جانب اسرائيل . وزيادة في التكريم والغواية نشرت له رواية في سلسلة بنجوين عن التعذيب في سجون مصر . ولا زالت الرواية في المكتبات وعلى ظهر غلافها تعريف بوجيه غالي يقول انه اول مصري شجاع يزور اسرائيل ويكتب عنها بحرية كاملة .

ولكن هذا «الرائد الشجاع» وجد منذ عامين منتحرا في احدى غرف البنسيون الذي يقيم به في لندن !! وترك رسالة بخط يده اعترف فيها بخطيئة العمر ، اشارت اليها الصحف الانجليزية بصورة عابرة لان البوليس احتفظ بها .. فلم تكن موجهة الى احد بالذات ..

وهمست في اذن المراسل الاجنبي : سوف ابادلك السبق الصحفي الكريم . اكتب . فتاة مصرية بالجامعة تدعى «سناء هاشم» ارسلت الى احسان عبد القدوس صباح السبت الماضي مكتوبا يقول «انني طالبة اقرأ لك بانتظام ، واعد رسالة عنوانها (الانسان العربي في الرواية اليهودية) .. ويبدو اننا اكثر تحضرا ـ او كذبا ـ من اليهود ، فنحن نصورهم كما قرات لك امس بطريقة فنية راقية .. بينما قراءتي لادبهم جعلتني أقشعر

وانا أجمع الصفات الحيوانية الشيطانية التي يلصقونها بالانسان العربي .. الادب معركة يا استاذ وهم في مواقع الهجوم دائما، ونحن بأمثالك في مواقع الدفاع دائما . لماذا ؟»

ولن يجيب كاتبنا الكبير على سناء هاشم ..

لانه كان قد اختار ان يكون في صف سناء حسن ، غير انه ينسى أن بنت الحاج هاشم هي صوت مصر الحقيقي .. الصوت الباقي .

أما صوت سناء بنت حسن باشا فهــي الصوت المزيف ، والذي سرعان ما يزول .

# اين كان توفيق الحكيم
# والمثقفون في قاع الجحيم ؟

دق جرس التلفون في منزل توفيق الحكيم ، وكان على الطرف الآخر صوت مهذب اكثر من اللازم يتكلم بلهجة شبه عسكرية :

ـ رئاسة الجمهورية يا فندم .. مبروك يا سعادة البك .. سيادة الرئيس أنعم على سيادتك بارفع وسام في الدولة .. قلادة الجمهورية .. معك على الخط سيادة كبير الامناء .

وتكلم توفيق الحكيم مع صلاح الشاهد . لم يفهم في بداية الامر شيئا . ولكنه ظل يردد : نعم . نعم . حاضر . شكرا .

شخص آخر هو الذي فهم . دق بيته هو الآخر جرس التليفون ، ولكن من رئاسة تحرير جريدة «الجمهورية» وسمع صوتا أجش يقول :

ـ يا استاذ رشدي لا تكمل مقالك الجديد عن توفيق الحكيم .

**وحين اراد احمد رشدي صالح ان يستفسر عما حدث ، كان الخط قد انقطع !**

***

حدث ذلك عام ١٩٥٧ . كنت محررا «مشاغبا» في مجلة ذائعةالصيت حينذاك اسمها «العالم العربي». وكانت مقالات احمد رشدي صالح على صفحات «الجمهورية» قد استهوتني ، فكتبت مقالا بعنوان «بين خمينيث وحمار الحكيم» . وصدرت المجلة بعد ان توقفت حملة الجمهورية على توفيق الحكيم ، وبعد ان اعلنت الصحف عن فوزه بأرفع وسام في الدولة (لا يعطى الا لرؤساء الدول) . ولانه لم يكن لديّ تليفون في المنزل ، فقد فوجئت بأسعد حسني – رئيس التحرير – يطرق بابي في الصباح الباكر وهو يصرخ : خربت بيتي ، خربت بيتي ! كان احمد رشدي صالح قد بدأ سلسلة مقالات نقدية ، يقارن فيها بين بعض مسرحيات توفيق الحكيم وبعض الاعمال الاجنبية . وكانت اكثر المقارنات مدعاة للدهشة والاثارة ، تلك المقارنة التي أقامها بين «حمار الحكيم» وحمار خمينيث الكاتب الاسباني .. فقد طبع الى جانب مقاله بالزنكوغراف صفحات كاملة من الاديب المصري تقابلها صفحات مماثلة من اديب اسبانيا تصل الى حد المطابقة !

وهاجت مصر وماجت . وارتفع توزيع الجمهورية ارتفاعا مذهلا ، والجمهورية هي جريدة الثورة وصوت حركة ٢٣ يوليو. وبعد ازمة مارس – اذار ١٩٥٤ وتأميم القناة في ١٩٥٦ اصبحت اللسان الرسمي للرئيس عبد الناصر ، قبل ان ينتقل هيكل من «آخر ساعة» الى «الاهرام» .

وثار «الرئيس» ثورة عاتية . ونقل عنه المقربون انه قال :

– انني لا افهم المقارنات والتحليلات الادبية . ولكني اشعر

ان هناك من يريد النيل من توفيق الحكيم . وهو رجل عظيم اعترف انني تأثرت بروايته «عودة الروح» تأثرا عميقا ، لقد حاولت تقليده في كتابة قصة لم اكملها ، ولكن المؤكد انني استوحيت من روايته «ثورة» أحاول استكمالها .

وتسربت تعليقات عبد الناصر فذاع تعبيره انه تأثر بعودة الروح لتوفيق حكيم ثم جاء الوسام الرفيع كالخاتم الرسمي على الشهادة .

وارتاح الحكيم ! لا لان راي عبد الناصر فيه كان ايجابيا ، وانما لان «الحملة» عليه قد توقفت .

وارتاح شخصان آخران ضحكا في اكمامهما طويلا هما التوأمان مصطفى وعلي امين ! فقد كان الحكيم آنذاك هو «نجم» «أخبار اليوم» اللامع . كان اكبر كتاب «الدار» ، على يمينه العقاد مرفوضا لسلبيته وجموده المفرط ، وعلى يساره سلامة موسى مرفوضا لتقدميته وتطوره المكشوف . كان العقاد تخلى نهائيا عن ثوريته القديمة واصبح يرى العلم ضد الدين . وكان سلامه موسى قد وصل نهاية الشوط فأصبح يرى العلم وحده هو الدين . بينما راح توفيق الحكيم على صفحات «أخبار اليوم» يكتب مسرحيته الشهيرة «رحلة الى الغد» ليقول فحسب : ما أفظع العلم اذا سيطر على الدنيا غدا ، كم هو مظلم المستقبل الذي يخضع لتوجيه العلم والعلماء !

ولم يكن هذا الحوار ــ الفلسفي ! ــ بحد ذاته مهماء الا في حدود ضيقة من حلقات المثقفين . ولكن الاهم ان العقاد كان قد انطوى في صومعته بعيدا عن الفكر السياسي احتجاجا على كافة منجزات حركة ٢٣ يوليو . وكان سلامه موسى صوتا مدويا بسلامة اتجاه عبد الناصر رغم السلبيات الثانوية ، لانه الاتجاه التاريخي لمصر نحو الاشتراكية والديموقراطية . اما توفيق الحكيم فكتب مسرحية «ايزيس» باعثا المجد الفرعوني القديم !

وقد اتاح مصطفى وعلي امين لتوفيق الحكيم كافة الفرص لتتويجه «ابا» فكريا لمصر الحديثة . ثم اختطفه هيكل الى الاهرام ومات سلامه موسى . وبعده رحل العقاد . وصدرت تنظيمات الصحافة التي تشبه التأميم ، فأحس الاخوان امين بالزلزال ، وعوت الكلاب من قبل ان تتفجر !

***

هل معنى ذلك ان توفيق الحكيم كان ضد ثورة ٢٣ يوليو ؟
كلا !
هل معنى ذلك انه «نافقها» خوفا وجبنا ؟
كلا ايضا !
بل لعله كان الاديب الوحيد الذي يعد بحق كاتب النظام ، من قبل ان يوجد النظام .
لم يكن الحكيم اديبا ثوريا ، ولكنه كان ساخطا على الديموقراطية الشكلية ايام الملك ، هاجمها بضراوة اصابت برذاذها حزب الوفد ـ اكبر التنظيمات السياسية الليبرالية ـ وفي «عصا الحكيم» و«حمار الحكيم» و«شجرة الحكم» حملة شعواء على المجالس النيابية والوزارية والدستور حتى انك تتصور الرجل احيانا وكأنه ضد الديموقراطية !
ولكنه ايضا ، واثناء الحرب الثانية بالذات ، شن هجوما صاعقا ضد هتلر والنازية وموسوليني والفاشية . واجرى حوارا بين شهريار الجديد وشهرزاد تنبأ فيه بهزيمة النظم العسكرية الدكتاتورية واكد فيه مناصرته للحضارة الديموقراطية .
ليس ذلك فحسب !
بل هاجم الشيوعية واعتبرها من حيث الاسلوب الوجه

الآخر للفاشية ، ولم يفرق كثيرا بين هتلر وستالين ، رغـــم اختلاف غايتيهما . ولكنه مجّد روزفلت وتشرشل وديغول .

اين كان يقف اذن ؟ وهو الرجل الذي تشهد له اجهزة الامن المصرية على اختلاف عصورها ، انه لم يلتحق بحزب من الاحزاب. رجل وقف بوضوح ضد الغول الفاشيستي وما دعاه بالخطــر الاحمر على الصعيد الدولي . كما وقف بوضوح ضد حكومـــات الاقليات وحزب الاغلبية في نفس الوقت على الصعيد المحلي !

اين كان ؟

كان يرتدي ثياب «محسن» في «عودة الروح» ، وشعـاره «الكل في واحد» . وكان الداعية الحقيقي لفكرة «المستبد العادل» التي ظهرت طيلة الثلاثينات من هذا القرن في الحياة السياسية المصرية .

لقد رفض الاشتراكية شكلا ومضمونـــا ، كما رفـــض الديموقراطية الغربية في التطبيق المصري ! ولم يكن «منظما» في حزب من الاحزاب .

هكذا رآه التوامان مصطفى وعلي امين — بحق — نبيا للنظام الجديد . انه ليس انتهازيا بأي حال من الاحوال ، فهذا الشكل الجديد من أشكال الحكم هو الحلم الذي كان يراوده منذ سنوات طويلة ، بصورة ضبابية غائمة !

كان تأييده لحركة ٢٣ يوليو صادقا لانه ابوهـا الشرعي . وحين اراد «امين اخوان» ان يستغلا هذه الابوة حتى النهايـــة اختطفه هيكل الى الاهرام . كانت ثورة ٢٣ يوليو تتحرك باعتدال نحو الوسط . وقد جاء وسام عبد الناصر للحكيـــم عام ١٩٥٧ حماية له من اليسار ، كما جاءت الاهرام حماية له من اليمين .

***

ولكن جرس التليفون دق مرة اخرى في بواكير عام ١٩٥٩

في بيت توفيق الحكيم . دق ـ في الواقع ـ اكثر من مرة .

قال له الخط الثاني : الرئاسة تسأل توفيق بك ما اذا كان يمكن ان يشرب الشاي مع السيد الرئيس بعد الظهر . وارتج الامر على الحكيم وطلب مهلة دقائق للرد ، لانه كان في «الحمام»! واتصل مباشرة برئيس تحرير الاهرام الذي دبّر الامر كله ، فأجابه هيكل : ابدا .. الرئيس عاوز يشوفك . طبعا سمعت باللي حصل . عاوز يسمع رأيك .

قبل ذلك كان نجيب محفوظ على الخط الاول، قال له : يا توفيق بك ، اناشدك التدخل لثقة الرئيس بك ومودته لك وتأثره المعلن بروايتك ، اناشدك التدخل لانقاذ سمعة النظام من هوس اجهزة الامن التي اعتقلت خلال الايام الماضية بعضا من صفوة المثقفين في البلد . يا توفيق بك ، يوسف السباعي انقذ عبد الرحمن الشرقاوي فقد كان اسمه مكتوبا في القوائم . كامل الشناوي ذهب بنفسه الى عبد الناصر لينقذ احمد رشدي صالح. حتى سعد الدين وهبه انقذ عبد القادر القط . وقد غضب الرئيس حين تبين له بالفعل ان الشرقاوي وصالح والقط لا علاقة لهم بالتنظيمات الحزبية . كلمتك الان يا توفيق بك يمكن ان تنقذ العديدين ، أرجوك .

ورغم معرفة نجيب محفوظ بالتسجيلات المباحثية للتليفونات فقد كاد يجهش بالبكاء وهو يقول :

ـ النظام نفسه في خطر يا توفيق بك . أشك في ان الرئيس يعلم كل شيء . وحتى لو كان يعلم فقطعا لا يدري بالتفاصيل : تفاصيل الاسماء وتفاصيل ما يحدث .

وجاءه صوت توفيق الحكيم وقورا ثابتا :

ـ يا نجيب دول بيقبضوا عليهم لاسباب مالهاش علاقة بالفكر والادب .. دول لهم صفتين ، صفة المثقف وصفة السياسي ، احنا ندافع بس عن المثقفين ، لكن الناس اللي عايزه السلطة مالنا

ومالهم ؟

وصمت نجيب محفوظ على الطرف الآخر . ولم يدق تليفون الرئاسة من جديد في بيت الحكيم ، فقد استطاع هيكل ان يبرر موقفه للرئيس بأن الرجل عجوز ولا يدرك من الامور التي تجري شيئا ومن الافضل لسمعته ان يكون بعيدا حتى لا يتهمه احد او يشك فيه .

واستغرب عبد الناصر طويلا .. فقد كانت بين يديه قائمة اعدتها المخابرات العامة بأسماء مجموعة من اساتذة الجامعات وكبار الادباء ، يريد ان يستمع الى رايه فيهم !

وقد اراد الحكيم ان يغسل يديه كبيلاطس البنطي من دماء الابرياء ، فكتب عام ١٩٥٩ مسرحيته الشهيرة «السلطان الحائر». ذلك السلطان غير الشرعي والذي لا بد وان يكتسب شرعيته بصوت الشعب والقانون ، لا بالسلطة والسيف . كان واضحا رغم الديكور الملوكي الذي اضفاه على المسرحية انه يقصد النظام المصري الراهن وانه يثق الى اقصى الحدود بجمال عبد الناصر ، ولكنه يحذره من الوزير والقاضي والمؤذن والسيف ، ويضطره لقبول الغانية الفاضلة وحكم القانون .

وطلبه نجيب محفوظ بالتليفون مهنئا ، يقول :

ـ الحمد لله على ان الرقابة وافقت... باقي «اولاد حارتنا».

كانت هذه هي الرواية الاولى لنجيب محفوظ ، التي يمكن ان تكون محكا لعلاقته بالحكم .. فالثلاثية التي بادرت بنشرها مجلة «الرسالة الجديدة» بين عامي ١٩٥٤ و١٩٥٦ ثم صدرت كاملة في ثلاثة أجزاء عام ١٩٥٧ اقتصرت على تناول المرحلة الواقعة بين عامي ١٩١٧ و١٩٤٤ اي انها توقفت تاريخيا قبل حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بثماني سنوات . اما «اولاد حارتنا» فقد عالجت بالرمز الديني المهذب قضية الاشتراكية والعلم . رفضتها الرقابة اولا ، وثار عليها الازهر ثانيا ، وتمكن هيكل من حل وسط عجيب هو

نشرها مسلسلة في الاهرام دون نشرها في كتاب .

وظل اصدقاء نجيب محفوظ من الكتاب والنقاد يختفـــون الواحد بعد الاخر . كانت ندوته الاسبوعية في كازينو اوبرا وسط القاهرة (كازينو صفية حلمي) كل يوم جمعة . وكان من اليسير ملاحظة التناقص التدريجي في عدد رواد الندوة منذ اول العام الجديـــد ١٩٥٩ الى ٢٨ مارس ـ اذار من نفس العام الـــى يوليو ـ تموز الى العام التالي ١٩٦٠ . اختفى من النـــــدوة ـ حضورا وذكرا وتباعا ـ محمود العالم ولويس عوض ولطفـــي الخولي وامير اسكندر وصلاح حافظ وفيليب جلاب وشوقـــي عبد الحكيم وطاهر عبد الحكيم وفتحي خليل وسعد التايه والفريد فرج ونبيل زكي ومئات .. مئات غيرهم ، يعرفهم الاقلون ويجهلهم الاكثرون .

وتكهرب جو مصر ! ان ثمة شيئا رهيبا يحدث ولكن فـــي صمت . تجاوز العدد المئات وبدا العد بالالوف . صفوة العقول وخيرة المناضلين واصلب الوطنيين .

ولا احد يتكلم ! وانما حملقت الدنيا كلها وطالت الالسن على آخرها ، حين راح احد اللصوص الظرفاء يطارد الاغنياء في عقر دورهم ، يأخذ منهم ولا يقتل . والشرطة تحاول عبثا الامساك به . واصبح بطلا في المخيلة الشعبية يتتبع الناس اخباره لحظة فلحظة وقلوبهم بين ايديهم يضرعون الى المجهول الا يقع في ايدي البوليس . وانضمت احدى الصحف الكبرى الى قافلة الشرطـة تتعقب «المجرم الخطير» وترصد لمن يعثر عليه ـ نيابة عن وزارة الداخلية ـ مكافأة خيالية . اما الجماهير ، فبعضهم كان يحميه ، والغالبية كانت موزعة بين السؤال عن آخر «غني» سرقه والسؤال عن مصيره . الى ان تواجه الغريمان عند احدى المغارات بحلوان : الشرطة في الخارج ، و«اللص» في كهفه يمسك مسدسا ويقسم انه لن يستسلم ، وكم كانت شماتة الشعب وفرحته طاغية حين

اطلق على راسه الرصاص ! احس الجميع انه انتصر ، شعروا ان «عدوهم الحقيقي» هزم .

وشرع نجيب محفوظ يكتب «اللص والكلاب» ! اما توفيق الحكيم فعلق قائلا : هو ايه اللي بيحصل في البلد ؟ الوحدة مع سوريا هي السبب . احنا مالنا ومال العرب يا ناس ؟ هو احنـا فاضيين للغم ده واللا احنا غاوين مصايب بس .

كانت هذه ـ فعلا ـ نقطة الخلاف الاساسية وربما الوحيدة بين توفيق الحكيم وجمال عبد الناصر . لم يعلنها ، ولكنه بالتأكيد كان يضمرها ويجهر بها سرا بين خلصائه . بينما كان خـــلاف الشعب المصري مع عبد الناصر مغايرا . كانت «الاجهزة» هي الغول الحقيقي الذي يهدد كافة المنجزات من الاستقلال الى الوحدة الى التأميم . كان الشعب موقنا بأن هذه الاجهزة تتآمر على عبـــد الناصر نفسه ، بضرب العزلة الجماهيرية من حوله ، ببث الكراهية في اجراءاته ، باقامة الحاجز الاسطوري بينه وبين صوت الشعب وضميره .

ولولا ان عبد الناصر كان في بلغراد عام ١٩٦٠ لما علم .. فوجيء باليوغسلاف يتحدثون عن مناضل شيوعي مصري كبير هو «شهدي عطية الشافعي» قد اغتيل في سجن ابي زعبل تحت سياط التعذيب . وكان أول عمل قام به عبد الناصر فور عودته الى مطار القاهرة ان تقدم ببلاغ ـ باسمه الشخصي كمواطـــن مصري ـ الى النائب العام يطلب التحقيق في الجريمة المذكورة!

وتوقفت حمامات الدم في السجون والمعتقلات المصرية ، بعد ان استشهد علـى أيدي الجلادين المدربين والمرضى المناضلـون فريد حداد ومحمد عثمان ورشدي خليل وغيرهم كثيرون . ولا زالت آثار السياط وكسر الاحجار وضرب الشوم على ظهـــور واجساد الغالبية الساحقة من المناضلين المصريين .

وحتى ..

حين صدرت قرارات الافراج من رئيس الجمهورية قبيل منتصف عام ١٩٦٤ كان الصراع ضد المعتقلين والمسجونين السياسيين في الذروة التي اودت بحياة المناضل لويس اسحق قبيل ايام من الخروج الكبير .

وكان توفيق الحكيم في ذلك الوقت يكتب مسرحية «طليعية» في غموضها بعنوان «يا طالع الشجرة» ، بينما راح نجيب محفوظ بعد «اللص والكلاب» التي جعل فيها اللصّ «فدية الملايين» ، راح يكتب «السمان والخريف» ليجعل من اليسار رمزا للطريق الوحيد امام التطور ، ويكتب «الطريق» باحثا عن الحرية والكرامة والسلام ، ويكتب «الشحاذ» مستجديا الحقيقة ، ويكتب «ثرثرة فوق النيل» رافعا مظلمة الحكيم القديم ابيوور الى الفرعون الجديد ، ويكتب «ميرامار» ناعيا السقوط مستهولا الفاجعة .

والى جانب نجيب محفوظ ، كانت هناك قلة من الفرسان الذين غامروا بوضع الجرس في رقبة القط : بعضهم همس للرئيس بالحقيقة ، والبعض الاخر ساعد الاسر الجائعة والعائلات المشردة والارحام الثكلى و ..

ولم يكن المناضلون الذين عذبوا الى حد الموت يهتفون بسقوط عبد الناصر .. قلة نادرة هي التي فعلت لزمن قصير ، وعادت بسرعة الى صوابها. وانما كانت الغالبية ــ في ظلمة الاقبيةوأفران الدم ــ تراه بطلا قوميا . بل رأته احدى الكتل الكبيرة مع بعض رفاقه «مجموعة اشتراكية في قمة السلطة» .

لماذا كان الذين في قاع الجحيم يهتفون بحياة عبد الناصر ، ولا يزالون الى اليوم هم الذين يدافعون عنه ؟ وأين .. اين كان توفيق الحكيم ؟

ببساطة لم تكن القضية عند هؤلاء جراحا شخصية . كانوا يرون الاستقلال والسويس والسد العالي والاصلاح الزراعي والتحضير والتأميم والتصنيع الثقيل ومجانية التعليم تستحق التضحية حتى الموت . وكانوا يرون الجحيم بعيون مفتوحة على

الصراع الاجتماعي الضاري في باطن المجتمع وعلى قمة السلطة على السواء . ولم يكن السجن والتعذيب والافراج والقتل الا جانبا من هذا الصراع .

ولست انسى مطلقا ، جمال عبد الناصر في أواخر عام ١٩٦٩ حين اجتمع بأسرة «الطليعة» في مؤسسة الاهرام ، وقال لنا بالحرف : لولاي .. لكنتم حتى الان في الجبل . يقصد صحراء الواحات ومعتقل ابي زعبل بطبيعة الحال .

ليس معنى ذلك انه بعيد عن المسؤولية فقد كان الانفصال وهزيمة ١٩٦٧ من الدروس التاريخية العنيفة التي تلقاها في حياته . وكانت مجزرة ايلول – سبتمبر ١٩٧٠ بمثابة الدرس الاخير الذي انتهى بوفاته .

لقد دفع عبد الناصر الثمن فادحا ، لانه رغم تجسيده العميق لاكثر الاجنحة تقدما في سلطة ٢٣ يوليو ، الا انه لم يكتشف الصيغة الصحيحة للتحول الديموقراطي عن سلطة الاقطاع والفئات العليا من البرجوازية المصرية . ومن ثم لم يكتشف الصيغة الصحيحة للتقدم الاجتماعي .

ولكنه – كما قلت – دفع الثمن غاليا . ترك وراءه اعظم المنجزات (عروبة مصر وتطورها نحو الاشتراكية) في مهب الرياح .. وقد دفع الكثيرون – الكثيرون ، الثمن مضاعفا حين جرؤوا بنبالة الشهداء على مواجهته .

ولم يكن توفيق الحكيم من بينهم ..

اما انه كان يصمت او انه كان يقول كلاما يرادف الصمت ..

وحين تكلم في المرات القليلة التي خلع فيها البيريه والقى العصا ، ماذا قال ؟

قال مع التأميم «الطعام لكل فم» وكتب «شمس النهار» ممجدا قيمة العمل متفائلا بمستقبل العلم . ثم كتب عام ١٩٦٦ «بنك القلق» مشيرا الى اجهزة القهر والطغيان . وعند انتخابات الرئيس الثانية كتب في الاهرام : لقد انتخبته منذ ثلاثين عاما

لافتا النظر من جديد الى بطل «عودة الروح». وحين رحل كتب اولى القصائد مطالبا له بتمثال في اكبر ميادين العاصمة ، يتــم نحته وفق مسابقة عالمية بين الفنانين الكبار ، ويسهم في اقامته كل مواطن .

وكان الحكيم ــ في يقيني ــ صادقا كل الصدق حين اتخذ هذه المواقف وقال هذه الكلمات . انه «كاتب النظام» الاول ، سواء بدعوته الباكرة الى نظرية المستبد العادل ، او بموافقته ــ العلنية والمستترة والضمنية ــ لخطوات ٢٣ يوليو ..

الوحدة العربية فقط كانت «الشوكة» فــي حلق الحكيم ، وعندما انكسرت بالانفصال عادت مباركته لما يجري اشد ..

لم يفتح فمه بكلمة عن «الثقافة والحضارة» حين اعتقلتهــا الاجهزة في سراديب الموت . وحين طلب منه السلطان المشورة اعتذر بالشيخوخة وقلة الحيلة . وحين اطلعه البعض على قمصان الدم أشاح بوجهه عن اللون الاحمر قائلا انه يفرق بين الثقافــة والسياسة .

من هنا ، بالضبط ، تسقط اهليته لرفع الدعوى التــي اقامها في مقاله السياسي الرخيص والمبتذل «عودة الوعي» .

انه ليس شاهدا ، ولا صاحب حق . وانما هو بالدقــة «المسؤول الادبي» عن النظام الذي يدينه ولا تعنينا في القليل او الكثير أكذوبته اللفظية التي يقول فيها «أرجو من التاريخ ان لا يبرىء شخصا مثلي ، يحسب في المفكرين ، وقد اعمته العاطفة عن الرؤية ففقد الوعي بما يحدث حوله» .

هذا النقد الذاتي الزائف ليس اكثر من شرك ينصبه لكل منا..

وقد سقط البعض منا للاسف في المصيدة . جميع الذين ناقشوه الحساب اخطأوا الحساب .. فهذا هو هدفه أو هدف الذين وراءه .. لقد افردت الاخبار واخبار اليوم وآخر ساعــة والمصور صفحاتها للرد ورد الرد ، ورد رد الرد ، وهكــذا لمجرد ترسيخ الانطباع الذي توحي به السطور والكلمات والاحرف

وحتى المساحات البيضاء .

لا تناقشوا مقال «عودة الوعي» فهو بكافة المقاييس لا يستحق النقاش.. وانما تأملوا معي هذه الحدوتة او الحكاية «كان يا ماكان رجل حكيم يحذر المشي وسط الشارع ، يتكىء على ظله جانب الحائط ، يتنكر بالعصا والبيريه حتى يظنه العقلاء مجنونا والمجانين عاقلا ، عاش عمره في التبات والنبات وخلف صبيانا وبنات . وحين بلغ ثلاثة أرباع قرن من الزمن المثلج وسط غابة مشتعلة خلع ثيابه كلها دفعة واحدة ووقف وسط الطريق عاريا يصرخ في المارة بأعلى صوته : جلا جلا .. انا حكيم الزمان وكل أوان . فلـــم يصدقه البعض وتمتموا بلامبالاة : نوع جديد من الحواة. وصدقه آخرون وقالوا ..» ولم تكتمل الحدوتة او الحكاية ، ولكنـــي سمعت احدهم يغمغم بأسى وحزن عميقين : لقد سقـــط كاتب عظيم .

# دار صحفية أم سفارة امريكية؟

اثناء المناقشات الواسعة التي جرت في مصر خلال الاسابيع القليلة الماضية حول «تطوير الاتحاد الاشتراكي» في مصر كتب علي امين في «أخبار اليوم» مقالا دعا فيه الشيوعيين المصريين الى تكوين حزب علني معترف به من الدولة . وبرر الكاتب دعوته بقوله ان ضجيج الشيوعيين وهم تحت الارض اكبر من حجمهم الحقيقي ، اذا رات وجوههم الشمس . وانه لا بد من ان يعرفهم الناس حتى لا يظل غموضهم مدعاة للجاذبية ، فحين يعرفهم الناس على حقيقتهم سوف ينفضون من حولهم ، ويسقط سحر العمل السري . واقترنت دعوة علي امين بدعوة اخرى ترددت في مجلس الشعب المصري اثناء المناقشات ، تطالب الدولة بنشر اسماء الشيوعيين على الملأ .

ولعله لم يعد سرا ان مصطفى امين قد اعترف ، في

التحقيقات التي انتهت بمحاكمته وإدانته عام ١٩٦٥ ، ان « دار اخبار اليوم» تملك جهازا للمعلومات يعتمد على مصادر موثوقة محلية واجنبية ، وان هذا الجهاز يتبادل المعلومات مع الاجهزة الاخرى المحلية والاجنبية . وكان واضحا من التحقيق ان التنظيمات الشيوعية المصرية هدف رئيسي لهذا الجهاز ، فلديه اسماء الشيوعيين ووظائفهم واحوالهم الاجتماعية وتحركاتهم .

ومن المؤكد ان الحقائب الاربع التي سربها مصطفى امين - باعترافه - الى شقيقه التوأم في لندن عن طريق السفارة الاميركية في القاهرة ، لم تكن تحتوي على رسائل غرامية .. فالارجح انه منذ تسلم السيد خالد محي الدين مسؤولية «اخبار اليوم» بدأ الاخوان في تنظيفها من الاسرار وتطهيرها من الوثائق. ولا شك انه كانت بين «الاوراق الخاصة» ذلك الارشيف السري الخطير المليء بالمعلومات عن الشيوعيين المصريين وغيرهم من المناضلين الوطنيين والديمقراطيين .

ومن ثم فدعوة علي امين الى تكوين حزب شيوعي علني ، او خروج هذا «الحزب» الى السطح ، وكذلك الدعوة الى نشر اسماء الشيوعيين وغيرهم لا تتصل بفضول علي امين او حب استطلاع بعض اعضاء مجلس الشعب ، لان ارشيف علي امين وملفات اجهزة الدولة لا تنقصها المعلومات . وانما الامر كله هو تصوير المناضلين سواء كانوا شيوعيين او ناصريين او غيرهم وكأنهم «خوارج» العصر والنظام . تماما كالمعادلة السقيمة التي نشرها مؤخرا صالح جودت في «المصور» حين قال ان الماركسيين ملحدون وان المصريين مؤمنون ، وإذن فالماركسيون ليسوا مصريين !! هكذا، فتحت مظلة رفع الرقابة يهدد دم الوطنيين في مصر اذا آمنوا بعروبة مصر والاشتراكية والمنجزات الايجابية لعبد الناصر ، فهذا كله «كفر» عند صالح جودت . اما عند علي امين - الاكثر ذكاء - فالامر يستحق تنظيما علنيا للشيوعيين !

هل يمكن حقا لعلي امين ان يكون «ديموقراطيا» الى هذا الحد ، أم انها خدعة تخفي مصيدة جديدة للمناضلين ؟ لنقم اذن بجولة في البناء الشاهق بشارع الصحافة بالقاهرة ، تلك القلعة التـــي يسمونها تواضعا بدار أخبار اليوم .

***

عشت شهورا قليلة في «اخبار اليوم» بين أواخر عام ١٩٥٦ وبدايات عام ١٩٥٧ . اخذني سلامه موسى ذات صباح الى مكتب موسى صبري رئيس تحرير مجلة «الجيل» التي تصدرها الدار اسبوعيا حينذاك . كانت المجلة طموحا لان تكون «تايم» العربية، حتى في طريقة الاخراج . وكان سلامه موسى كاتبا لامعـــا بين مختلف الكتاب الكبار الذين اختارهم مصطفى وعلـي امين بدهاء وبراعة ، ممثلين لمختلف التيارات الفكرية قبيل ثورة يوليو ٥٢ . كان سلامه موسى والعقاد وزكي عبد القادر وابراهيـــم المصري وغيرهم يضفون على صحف الدار طابعا «ليبراليا» . ولكـــن الحقيقة هي ان الواحد منهم كان يكتب مقاله اكثر من مرة حتـى يوافق عليه الرقيب مصطفى او علي امين . وكانت «اخبار اليوم» اول صحيفة مصرية ترفع أجور الكتاب والصحفيين ، ولكنها مقابل ذلك كانت تستنزف اقلامهم استنزافا فهم يكتبون اليوميات في الاخبار والمقالات والمترجمات ورسائل القراء في «أخبار اليــوم» و«آخر ساعة» و«الجيل» .

وكان لسلامه موسى صفحة اسبوعية في «الجيل» يخصصها عادة للشباب . لذلك اقترح علي ان احرر الصفحـــة الثقافية . وافقت ووافق موسى صبري . وفي الاسبوع نفسه التحق بالعمل معنا الزميل احمد بهجت ، وقد بزغ نجمه حين استطاع مـــع

زميلتنا امينة شفيق ان يجريا تحقيقا على الطبيعة اثناء العدوان عام ١٩٥٦ في بور سعيد .

كنت في ذلك الوقت واحدا من مجموعة الشباب الجدد في حقل الثقافة المصرية ، نجتمع في بيوتنا او في المقاهي الشعبية او نسيح في الشوارع، وننشر انتاجنا في المجلات اللبنانية، حماسنا يطوي ايامنا واندفاعنا يطوي ليالينا وطموحنا يروي احلامنا بشهوة تغيير العالم .

والقلة القليلة التي استطاعت منا ان تنفذ الى جريـــــدة «المساء» برئاسة خالد محي الدين او مجلة «صباح الخير» برئاسة احمد بهاء الدين ، افلتت احلامها من سجن الواقع المر للصحافة المصرية ، اما انا (وغيري) فقد كان رئيس التحرير او سكرتـــيره (المرحوم توفيق بحري) ينشر مقالا ويشطب اربعة ، ويسألني كل مرة من هو يوسف ادريس او عبد الرحمن الشرقاوي او الفريد فرج او صلاح عبد الصبور ؟ هل قرات «لا انام» لاحسان او «اني راحلة» ليوسف السباعي او «شباب امراة» لامين يوسف غراب ؟ هؤلاء هم اعمدة الثقافة المصرية . لا تكتب عن المغمورين حتى لا تصبح مثلهم ، انهم لا يكتبون كلاما مفهوما .

واصطدمت بموسى صبري مرارا ، ولكنه تحملني اكرامـــا لسلامه موسى . الى ان وقعت الواقعة بانتخابات الاتحاد القومي وقد رشح نفسه عن دائرة قصر النيل ، وهي الدائرة ذاتها التي رشح فيها مجدي حسنين . وعقد موسى اجتماعا للمحررين بسط فيه مجموعة من الخرائط لاحياء الدائرة الانتخابية . وطلب منـــا شبابا وشابات ان نساعده في المعركة . وسجل صوت عبد الحليم حافظ على شريط يغني امجاده ، ورفع اللافتات التي تقــــول «انتخبوا موسى صبري الذي لم يؤسس مديرية التحرير» او تقول «انتخبوا موسى صبري .. كاتب حر لم يركع لحاكم» . واعلن لنا في سرور بالغ ان اجمل الممثلات واشهر النجوم ، سوف يقيمون

المآدب احتفالا به ودعوة الى انتخابه . وفوجيء بي ارفع اصبعي وسط الاجتماع اطلب الكلام . قلت :

ـ اننا كمحررين في هذه المجلة يجب ان نظل بمنأى عن المعركة الانتخابية ما دمت انت بالذات مرشحا .

أسكتني الزملاء وتجهم وجهه قليلا ثم تمالك نفسه وسألني مازحا :

ـ هل انت شيوعي ؟

قلت : لماذا ؟

اجاب : لان الشيوعيين فقط ضدي ويؤيدون مجدي حسنين . قلت له : انا لست من ابناء هذه الدائرة فلن انتخب احدكما ، ولكني اعتذر بصراحة عن المشاركة في هذه المعركة ، لا استطيع مساعدتك . وخرجت من الاجتماع . ولم اعد الى «اخبار اليوم» من ذلك الوقت !

ولكن معركة اخرى كانت تنتظرني مع «ملوك القلعة» بعد هذا التاريخ بحوالي عام . كنت قد ذهبت ـ مرة اخرى ـ برفقة سلامه موسى الى «دار روز اليوسف» لمقابلة احمد بهاء الدين للعمل في «صباح الخير» . انتقل معي ـ بالصدفة وحدها ـ احمد بهجت . وكان سلامه موسى مشغولا بتأليف كتاب حول «الصحافة حرفة ورسالة» وكنت مشغولا بكتابة دراسة نقدية لسلامه موسى وفكره . وقد اطلعني على مخطوط الكتاب فصلا فصلا ، قبل ان يسلمه الى «أخبار اليوم» لاصداره ضمن كتابها الشهري. ومات سلامه موسى فجأة في ٤ اغسطس ـ آب ١٩٥٨ . ولم يكد يمضي اسبوع حتى ظهرت اعلانات مكثفة عن الكتاب . وقد بيعت منه عشرات الالوف من النسخ في اسبوعين فقط ، كان السعر رخيصا للغاية ، والمؤلف نجم لامع مات حديثا . وتصفحت الكتاب وكاد يغمى عليّ ! لم يكن الكتاب عن الصحافة لا كحرفة ولا كرسالة وانما كان كتابا عن مصطفى وعلي امين و«أخبار اليوم» !

واتصلت فورا بالدكتور رؤوف الابن الاكبر لسلامه موسى ، وكان يعمل حينذاك باحثا بالمركز القومي للبحوث قبل تعيينه استاذا بجامعة الاسكندرية . وكتبت مقالا يشتمل على كافة الحقائق بجريدة «المساء» . لم يكن المخطوط لدى احد منا . ولكن اسرة الفقيد رفعت دعوى امام القضاء تطالب الناشر بتقديم المستندات. وحاول علي امين ان يعطي الاسرة كل ما تطلبه من مال مقابل التنازل عن القضية . ولكن المشكلة هي ان الكتاب المزيف كان عدوانا على تاريخ سلامه موسى بأكمله . ولم يرضخ احد للاغراء ولا للتهديد (ظل التوأمان يشيعان في كل مكان ان رؤوف سلامه وغالي شكري من الشيوعيين الخطرين ، وان قضية الكتاب مدفوعة من الحزب الشيوعي المصري !!) .. وكسبت الاسرة قضيتها وصادرت النيابة بعض النسخ المطبوعة التي وجدت ، وكذلك المخطوط الاصلي ! هنا كانت المفاجأة الحقيقية . وطبع الكتاب من جديد طبعته «الاولى» الصحيحة .

هذا ما فعلوه مع سلامه موسى في حياته وموته . مع العقاد فعلوا العكس للوصول الى النتيجة ذاتها . كان الرجل معاديا لثورة يوليو دون لف او دوران ، عن قناعات فكرية خالصة ، فهو بتكوينه الخاص وقف ضد كافة الاجراءات التي اتخذتها قيادة الثورة ، وكافة الاشكال السياسية التي خلقتها . ولكن اصحاب «اخبار اليوم» هم الذين فتحوا له ابواب مؤسسة فرانكلين ومكتب الاستعلامات الاميركي وسلسلة «الناقوس» التي كانت تصدرها مكتبة الانجلو المصرية للهجوم على الشيوعية والشيوعيين والاشتراكية والاشتراكيين ، ولتزيين الوجه القبيح لاميركا وترجمة المؤلفات المعادية للاتحاد السوفياتي والصين . كان العقاد طاقة ضخمة ، وكان مؤمنا بما يقول ، ليس مأجورا في معتقداته. ولكن هذه «المعتقدات» وجدت هوى لدى التوأمين فأسسا «المختار» لزكي عبد القادر ، وأصبحا همزة الوصل بين العقاد

والاجهزة الاميركية . لقد التقت موضوعيا الاهداف والوسائل وان اختلفت الاصول والقناعات ، فالمصادر واحدة لضرب الاشتراكية ودعاتها ، العروبة وانصارها ، ثورة يوليو وانجازاتها.

و«جمع النقائض» على طبق واحد لتظهر الدار كما لو كانت قلعة الليبرالية في مصر ، هو منهج «اخبار اليوم» في توزيع الادوار والمواد . انها كما تنشر «الثقافة الثقيلة الدم» التي يكتبها العقاد وسلامه موسى ، فانها تنشر الصحافة الخفيفة الظل والتي لخصها آل امين في المثل الشائع «ليس خبرا ان يعض الكلب رجلا ، وانما الخبر ان يعض الرجل كلبا» هكذا اخترعوا «ليلة القدر» كل سنة ، حيث تصلهم عشرات الالوف من رسائل القراء الذين يطلبون من السماء شيئا في ليلة القدر ، فيستجيب ملائكة الرحمة ــ مصطفى وعلي امين طبعا ــ وينتشلون واحدا من المعذبين في الارض ويرسلون اليه بالهدية التي طلبها . او هم يعمدون الى اختيار مريض على عتبة القبر يحيطونه بكافة مظاهر الرعاية والحب والسعادة وكأنهم يرجونه ان يطلب ما يشتهي قبل الموت. هكذا فعلوا بمريضة شهيرة اسمها ليلىاصيبت بالسرطان. اعطوا عريسها ــ وكان قد عرف بنهايتها ــ مبلغا كبيرا ليزفاليها، واقاموا لها «فرحا» خرافيا كليالي الف ليلة وليلة ، غنت فيه اشهر المطربات ورقصت اشهر الراقصات ، وهبطت على العروس اغلى الهدايا . وبعد ايام ماتت ليلى كما مات غيرها ويموت المئات من مرضى السرطان .

وكانت ضربتهم ذات يوم حين علموا بأن الاديب «صبحي الجيار» اقعده المرض عن الحركة منذ الصبا ولا امل في شفائه . احتفلوا به احتفالا اسطوريا مماثلا لفرح ليلى ، وعينوه محررا ــ من فراش المرض ــ بـ «آخر ساعة» . وسافر الى لندن بغية العلاج ولكن دون جدوى !

**لماذا اذن ؟**

انهم ، على صعيد الفكر ، يشيعون فكرة «الحظ والقـــدر والمصادفة» وهم سادة الدعوة الى الحداثة والعصرية والحضارة الغربية ! وهم ، على صعيد المجتمع ، يختارون «الفرد» الــذي تنفتح له طاقة السماء ليلة القدر ، والذي يؤخذ من فراش المرض ليعرف السعادة قبل ان يموت او ليشم رائحة الامـــل قبل ان يستقر في قاع اليأس . الفرد اولا واخيرا فالملايين لا تنفتح لهم سماء آل امين ليلة القدر ، وهناك الوف «ليلى» و«صبحي الجيار» لن تزفهم صباح ولا شادية ولا نجوى فؤاد . الحظ والفرد ثــم «نموذج الصحافة الناجحة» ففي غمرة انحطاط الوعي العام يجذب الفضول عيون الناس الى هؤلاء الفرسان المنقذين ما دام الخلاص بـ «اخبار اليوم» .

★★★

وفي القضايا العامة هم «جاهزون» دائما فما ان تسرب اليهم شعاع الضوء الاخضر عام ١٩٥٩ بالهجوم على الشيوعية حتــى تحولت دار اخبار اليوم الى سفارة اميركية اكثر ملكية من الملك . وكانت «الكراسة الرمادية» التي زيفوها — كدأبهم على مر التاريخ الصحفي المعاصر — هي رسالتهم الى المصريين التي يهدرون فيها دماء الشيوعيين «الملاحدة» . واصـــدروا النشرات والمنشورات كأي مكتب استعلام نشيط ، عن «جهنم الحمــراء» في الصين وكوريا الشمالية والاتحاد السوفياتي والبانيا !! الصور الملونـة الزاهية على ورق الكوشيه بملاليم واحيانا مجانا ، وقد رسمت بالاحمر القاني «مذابح الذئاب الملاحدة» . هكذا ، جنبا الى جنب، مع مقالات انيس منصور — في ذلك الوقت — عن الوجوديـــة واهميتها العظمى في التخلي عن «حائط نسميه الله» لنواجـــه الحياة بشجاعة وحدنا بلا سند . اما الحياة كما صورّها انيس منصور ، فهي تلك التي يعيشونها في الحي اللاتينـــي عرايا او

اشباه عرايا والجنس مجانا لمن يريد ويستطيع ، في الطرقات والحدائق الرجال والنساء يضاجعون بعضهم بعضا بلا ضابط من «القيم القديمة» .

هكذا حاربوا الالحاد «الشيوعي» ودعوا الى الالحاد «الوجودي» في نفس الوقت. وكانوا مزيفين للشيوعية والوجودية كليهما ، فالكراسة الرمادية من صنعهم وجهنم الحمراء رسموها بريشة المخابرات الاميركية ، والوجودية ــ كما يعرف مدرس الفلسفة السابق انيس منصور ــ لم تكن غانية تعرض جسدها للبيع !

وانما استغلال انخفاض مستوى الوعي في مصر هو الذي اتاح لهم الانتشار الجماهيري الساحق ، فقد ادركوا مبكرا قيمة الاعلام كوسيلة مواصلات عصرية : بالصورة والجملة القصيرة وصناعة النجم والصلات المشبوهة التي تمدهم بالمعلومات والاخبار وشركات الاعلان .. تمكنوا من الوصول الى كل بيت .

ويعد انيس منصور من اهم النماذج التي جسدت براعتهم في صناعة النجوم . مدرس الفلسفة الشاب يجيء ليترجم قصصا من الادب العالمي ويلخص كبرى المدارس الفكرية فيكتشفون «موهبته» ككاتب وطاقته على العمل . ثم يجرون له غسيل المخ اللازم ، بالمرتب الكبير والمكتب الفاخر والشهرة اليومية . ويلتقي الاستعداد الخاص مع قانون العرض والطلب ، وشيئا فشيئا ينسى الشاب المثقف الفلسفة والعلم وتصبح الصحافة هي «الدون جوانية» والسياحة وترجمة اغلفة الكتب الى لغة باهرة ومثيرة توهم القراء بأنهم اصبحوا مثقفين .

ولم تذهب صناعة «انيس منصور» ، عبثا ، فقد حمل على كتفيه الميراث الايديولوجي لآل امين في غيابهم المؤقت . حمل الجوهر وتخلى عن المظاهر الخارجية او هو وضع هذا الجوهر في اطار ذاته «المبدعة» وخصائصها المستقلة . كانت «ليلة القدر» و«ليلى» و«صبحي الجبار» هي المظاهر الخارجية لايديولوجية

«اخبار اليوم» القائمة على تقديس الحظ والمصادفة وتأليه الفرد ، جوهرها الحقيقي محاربة الحد الادنى من الاشتراكية والتحرر الوطني والدعوة المباشرة الى التبعية للغرب .

وكان من الطبيعي ان يتقلص دور التوأمين بعد قرارات «تنظيم الصحافة» التي تشبه التأميم . خاصة وقد توالى على الدار رؤساء مجالس ادارة من أمثال كمال رفعت وخالد محي الدين ، ولكن تقلص الدور الشخصي للتوأمين لم يتسبب في غيابهما ايديولوجياً . وكان موسى صبري وانيس منصور ــ على وجه التحديد ــ هما اكثر التعبيرات اصالة عن فكر « اخبار اليوم » .

وفي غمرة معاناة الوطن من معاركه السياسية والفكرية ضد الاستعمار والرجعية المحلية ، عاد انيس منصور من رحلته الى الهند ليكتب (عام ١٩٥٨) عن كيفية تحضير الارواح في السلة . وانتشر الوباء في مصر طولا وعرضا . كانت قراءة الكف والفنجان من العادات الشائعة ولو من قبيل التسلية . وكان تحضير الارواح ، كالتنويم المغناطيسي ، يهمس به الناس ولا يكادون يصدقون . اما ان تحضر الروح في السلة فقد اصبحت «لعبة شعبية» يمارسها الصغار والكبار في البيت والشارع والمدرسة. وكانت صناعة النجم قد كفلت لانيس منصور ان يخترق مختلف وسائل الاعلام ، حتى حين كان الامر يدعوه الى الوقوف امام محل البن البرازيلي في شارع سليمان باشا يشرب القهوة صباحا ويوقع على أتوجرافات المراهقين والمراهقات . هكذا كانت الجاذبية الدون جوانية ــ وافتعال الفضائح احيانا ــ وسحر النجوم ، عاملا خطيرا في تصديق شائعة «تحضير الارواح بالسلة» فضلا عن الميراث الغيبي المصري والشقاء الاجتماعي الذي يهيء الناس لالتماس العزاء بعيدا عن الواقع الكثيف على سطح الارض .

وانتهت البدعة واقبلت هزيمة ١٩٦٧ فاستولت المشاعر العنصرية فجأة على «الاخ» انيس منصور وراح يهاجم الثوراة

واليهود من منطلق ديني بحت . لم يكن قبلها قد ناقش الصراع العربي الاسرائيلي بحرف . حتى حين تعرض الوطن لعدوان ١٩٥٦ كان مشغولا بعرايا الحي اللاتيني . لكنه فجأة اصبح شيخا وفقيها (برفقة صاحب الفضيلة مصطفى محمود الذي بدأ حياته بداية مشابهة وانهاها بخاتمة مشابهة . حين أصدر انيس منصور كتابه الرصين نوعا حول الوجودية اصدر مصطفى محمود كتابه الرصين نوعا حول الله والانسان .. بعدئذ انخرطا في صفوف المجاذيب والدراويش ولكنهما يمسكان بمسبحة العلم حبة حبة) . ومن يقرأ اجتهادات الشيخ انيس عن اليهود واجتهادات الشيخ مصطفى في كتابه «التوراة» يشعر كما لو ان هناك مؤامرة — فيما لو ترجمت هذه الكتابات الى لغة اجنبية ، واسرائيل قادرة على ذلك — تهدف الى تصويرنا هتلريين نازيين وفاشست . وقد اصاب كلاهما — بحسن نية او سوئها لا يهم ما دامت النتيجة واحدة — عصفورين بحجر واحد . اولهما تقديم عزاء «ديني» لفاجعة ٦٧ يحمل تبريرا لها وحلا لمشكلتها . والثاني امداد العدو وانصاره — بوعي او دونه لا يهم فالنتيجة ايضا واحدة — بسلاح دعائي ضدنا .

وحين وصل الانسان الى القمر ، تمكن انيس منصور من استغلال هذا الحدث العلمي العظيم لخدمة اهداف معادية للعلم تماما .. اذ راح تحت عنوان «الذين هبطوا من السماء» يزعم ان اهرامات الجيزة قد بنتها بعض الكائنات التي زارت بلادنا في القديم من كواكب اخرى .

ثم كانت أحدث البدع المنصورية حين تحدث في الاذاعة عن «واقعة يحار المرء في تعليلها !» موجزها ان احدهم كان يقود سيارته في طريق صلاح سالم بالقرب من المقابر ، واذا به يشاهد امرأة ترتعد من البرد وقد بللها المطر فيوقف السيارة وتركب من خلفه لا الى جانبه ويناولها معطفه وفجأة ينظر الى الخلف بعد فترة

من الزمن فلا يجد المراة ولا المعطف . يوقف السيارة ويبحث عن المراة بين المقابر فيرى معطفه معلقا على احداها . وقد كتب على المقبرة اسم سيدة متوفاة في ربيع العمر .. تماما كما هـــي مواصفات المراة التي كانت في سيارته منذ لحظـــات !! ويطلب الكاتب الهمام ــ طبعا ــ من علماء الدين والنفس والفلاسفـــة استقراء هذه الظاهرة وتعليلها. وبدأ الناس يخشون طريق صلاح سالم ويتحدثون في البيوت والمقاهي ومكاتب العمل عـن الشابة الجميلة الميتة التي تظهر ليلا . وبعد اسبوعين كاملين ظهر انسان شجاع توجه الى الاذاعة ، وطلب من صاحب البرنامج ان يقرأ ما بين يديه . واذا بها قصة لكاتب لبناني ، محض قصة فنية نقلها انيس منصور الى الناس كواقعة حدثت بالامس في مصر . وكان صاحب البرنامج هو الآخر شجاعا فأذاع القصة ، وكانت فضيحة مدوية !!

***

ولكن انيس منصور لن يتوقف ، فهذا الفكر التخديـــري والذي لا علاقة له بالدين مطلقا ، انما هو حملة مركزة ضد العلم والمعرفة والانسان ، هو امتداد لمنهج «ليلة القدر» . لقد تواتر على «دار اخبار اليوم» رجال وطنيون كخالد محي الدين وكمال رفعت ومحمود امين العالم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئا في «القلعة» . بل لعل بعضهم اخطأ حين كان يتصور انه مـن الممكن اجتذاب العناصر الموالية لفكر «اخبار اليوم» الى دائرة الفكـــر الوطني بمزيد من المكافآت والامتيازات، او بعكسها اي بالتحرشات والتشنجات ! لقد ادين مصطفى امين في قضيـــــة التجسس للمخابرات الاميركية وظل علي امين هاربا تسع سنوات ، ولكـن «اخبار اليوم» في غيابهما لم تتغير . ظلت كما هي . حتى انهما

حين عادا اليها كأن شيئا لم يحدث والزمن لم يمض .

ولكن اشياء كثيرة ــ في الواقع ــ حدثت والزمن في الحقيقة اختلف . لذلك كتب موسى صبري كتابه الشهير «شيوعيون في كل مكان» مادحا الدول الاشتراكية . وهو الكتاب ــ الوثيقة التي يقدمها لليسار في انتخابات نقابــة الصحفيين كأوراق اعتماد . ولكن اليسار يعرف اللعبة فيرفضه . ثم يذهب الى الصحفيين المسيحيين في السر ويقول لهم : هل اصبح محرما على المسيحي ان يكون نقيبا للصحفيين ؟ ولكنهم ايضا يعرفون اللعبة فلا يجيبون على السؤال ، وانما ينتخبون المرشح الآخر !!

تغير الزمن حتى ان علي امين لم يستطع البقاء في «الاهرام» شهورا قليلة ، وحين اراد ان يهاجــم الشيوعيين والوطنيين والديموقراطيين ، لم يتهمهم بالالحاد ولا بالانحلال ولا بالدموية ولا بالدكتاتورية .. وانما راح يهاجم عبد الناصر والتأميم والاصلاح الزراعي والسد العالي والسوفيات فقط لا غير ! وراح يبعث من القبور باشوات العهد الملكي !

وكانت آخر نكتة انه يطالب للشيوعيين بحزب علني حتــى يعرفهم الناس !

اطمئن يا علي بك ، فالناس تعرفهم وتعرفك . وتذكر حين رأيتك آخر مرة في بيروت منذ عام ونصف بادرتني قائلا : لــم تتغير . وأجبتك : وانت ايضا !!

ترى .. هل فهمت ؟! اياك فحسب ان تتوهم ، وانت في مكتبك القديم بالدور التاسع ، ان الزمن لا يتحرك .. انه فــي حركته السريعة احيانا يبدو ساكنا . ولكنك حين تفيق من الحلم ــ ويكون الوقت قد فات ــ سوف تدرك ان كل شيء يتغير ، كل شيء .. الا التغير ذاته .

# جمال عبد الناصر
# بقلم وصوت صالح جودت

برغبة «سامية» من امير الكويت ، بدات قصة اغرب من الخيال .. كان الامير هو آخر من تسنى له عناق جمال عبد الناصر من الرؤساء والملوك العرب .. وقد ترك فيه نبأ الرحيل المفاجيء للرئيس المصري اثرا نفسيا عميقا ، فما كاد يهبط بطائرته الخاصة مطار الكويت بعد ظهر ٢٨ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ حتى همس في اذنه احد الرجال ان عبد الناصر يعاني الان لحظات الاحتضار .. وبعد ساعات قليلة وصله الخبر رسميا ان الرئيس مات !

ربما كان الامير هو اول الزعماء العرب الذين عرفوا بحقيقة الامر .. وكانت قبلة عبد الناصر على خده لا زالت تنضح بالعرق !

مضت ايام العزاء بطيئة ثقيلة ، والذكرى جاثمة على صدر الامير ، ويقال ان ارقا حادا اصابه في تلك الفترة ، فاستعصى عليه النوم ليال طويلة . وأفضى الى بعض اصدقائه في القاهرة

بالمشاعر المريرة التي لا تفارقه ، وقال انه على استعداد كامـــل للمساهمة في اي تخليد للرئيس الراحل .

ثم اشتبكت اسلاك التليفون بين القاهرة والكويت اشتباكا عنيفا ومتلاحقا ..

كان الخط الاول لاحد الاجهزة المصرية ، يكلم على الخــط الآخر الفنانة المصرية الكبيرة مديحة يسري ، وكان يقول :

ـ هل لدى شركة الموارد الثقافية والترفيهيــــة استعداد للقيام بعمل جاد خلال اسبوع ؟

وأجابت مديحة بصوتها الوقور الناعم :

● اي خدمة يا فندم .. تحت امرك .

سألها باحترام :

ـ هل تعرفين الشاعر صالح جودت ؟

قالت بهدوء :

● طبعا يا فندم .

في لهجة آمرة مهذبة اختتم الحديث :

ـ اتصلي به !

كانت مديحة يسري وقد اعتزلت السينما وجربت بعــض أشكال التجارة المشروعة في القاهرة ، قررت أن تجرب حظها في شركة فنية بالكويت ، تقوم اساسا بالتسجيلات الاذاعية وغــير الاذاعية .. برفقة مجموعة من رجال المال والاعمال في كل مـن الكويت والقاهرة . ولم يكن «الصوت» الذي كلمها جديدا عليها ، ولا كان صالح جودت صديقا جديدا . وطلبت صالح جودت على الفور :

ـ أيوه يا صالح .. ازي اخبارك .. قالوا لي اتصل بيك .. خير ان شاء الله .

● خير يا دوحه .. الامر وما فيه اني الفت كتابا عن الرئيس الراحل . وبيقولوا انك ممكن تنشريه وتسجليه كمان .. بصوتي

يعني .. ايه رايك ؟ ما تفكريش في الفلوس من ناحيتي ..

اندهشت مديحة قليلا ، فهي تعرف ان صالح جودت رغم كرمه الشهير لا يفرط في حقوقه المادية مطلقا ، بل هو يتخذها مقياسا لتقديره المعنوي . ولكنها حين تسلمت المخطوط ، كان صالح جودت قد تسلم شيكا قيمته ستة آلاف دينار كويتي . وقد اصر على الا يفتح حسابا به خارج مصر فتقاضى ١٢ الف جنيه مصري في القاهرة .

وبدأ المسؤولون عن النشر يقراون المخطوط ، وكان تقريرهم انه جاء مطابقا للمواصفات وفيا بالاتفاق المعقود بين الجهة الكويتية والجهات المصرية ، ملبيا «الرغبة السامية» لامير الكويت .

كان عنوان الكتاب «قصة كفاح البطل جمال عبد الناصر» . وقد نهج فيه المؤلف نهجا تسجيليا ، فاستعرض حياة الرئيس منذ الطفولة الى الوفاة .

وكان احد المسؤولين عن نشر المخطوط وتسجيله على اشرطة ممن يمكن ان نطلق عليهم اسم «الناصريين المتطرفين» ، فقد هز راسه معلقا : انه كتاب رائع لدرجة انني أشك في موافقة صالح جودت على وضع اسمه فوق الغلاف . صالح جودت ليس منافقا كما يظن البعض ، لانه غنى للملك ومحمد نجيب وعبد الناصر . انه يريد ان يعيش ، ولكن قلبه وعقله ضد عبد الناصر ، فكيف يسمح لنا بتوقيعه على مثل هذا الكتاب ؟

واجابت مديحة يسري : ليس توقيعه فحسب ، وانما صوته ايضا . المطلوب ان يسجله بصوته على شريطين ، فالكتاب معد للقراءة والسماع . سألها الاخ الكويتي ببراءة : وما الحكمة في التسجيل الصوتي . انه ليس قصيدة او اغنية او تمثيلية . واكتفت مديحة بأن تجيب : هذا هو المطلوب ، اسألهم انت !

وفي نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٧٠ صدر الكتاب مطبوعا ومسجلا على شريطين ، وكتب على ظهر الغلاف «اسمع هذا

الكتاب على شريطين (كاسيت) كل منهما ٦٠ دقيقة» . وانه من انتاج «شركة الموارد الثقافية والترفيهية . ص.ب ٢٢٨ الكويت» بصوت صالح جودت وتنفيذ مديحة يسري . ولم يذكر سعــــر الكتاب ، ولم يطرح علنا في الاسواق ، ولكنه وزع بطريقة سرية على بعض الناس ولم يعرف عنه الجمهور الواسع شيئا .

ماذا كتب صالح جودت ، وماذا قال بصوته ؟ قبل ذلـــك افتتحت الكتاب قصيدة باسم «سمير غبور» جاء فيها عــــن «الجماهير» يوم رحل القائد :

**وتمنت في حنايا النعش لو نامت .. وقاما**
**كانت الناس على النعش قلوبا تترامى**
**وتنادي : لم لا يحييه من يحي العظاما**
**لم لا يبقيه كالنيل وكالشمس دواما**

ثم يبدأ صالح جودت «قصة كفاح البطل جمال عبد الناصر» بقوله (ص ٩) : «عاشت مصر اجيالا طويلة في انتظار البطل .. وكانت الاقدار تصنع هذا البطل منذ حين ، وتعده للوثبة الكبرى التي انطلقت في ٢٣ يوليو في سنة ١٩٥٢» . واستطرد قائلا ان مصر انجبت في تاريخها الحديث كثيرا من الابطال كعمر مكـــرم وأحمد عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، ولكنهم جميعا كانوا زعمـــاء محليين ينادون «مصر للمصريين» اما جمال عبد الناصر «فقد نظر الى مصر كجزء لا يتجزأ من كيان اكبر ، هو الامة العربية من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي» فأصبـــح زعيما عربيا «ثم نظر الى الامة العربية كجزء من عالم اكبر» فأصبح زعيما للعالم الثالث .

وراح صالح جودت يعدد منجزات عبد الناصر في النقـــاط التالية ، انقلها حرفيا :

١ ــ «كان لثورة البطل على حلف بغداد اثرها في تقويضه، فقد انهارت الملكية في العراق ، وسقط نوري السعيد بطل هذا

الحلف ، وقامت في بغداد ثورة كثورة مصر في يوليـو ١٩٥٨» (ص ٤٥) .

٢ ـ «وقف وقفته المشهورة في الاسكندرية يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ـ ذكرى طرد الملك ـ يعلن حدثا من اكبر أحداث التاريخ المصري : تأميم قناة السويس » (ص ٥٤) .

٣ ـ «راح البنك الدولي ودول الغرب ـ وفي طليعتهـــا الولايات المتحدة الامريكية ـ تساوم وتضـــع القيود والشروط للمساهمة في بناء السد العالي ... بينما الاتحاد السوفييتـــي يتقدم بعرض سخي يعرض فيه تقديم ما يعادل اربعمائة مليـــون دولار ، وهو مبلغ كاف لبناء السد تماما ، بغير فوائد ، على ان يسدد خلال ستين سنة . واطمأن البطل الى مصير السد العالي» (ص ٥٤) .

٤ ـ «كانت الوحدة نتيجة طبيعية للتفاعل العربي ، ولجهاد البطل في سبيل دعم الفكرة العربية وتأصيلها في النفوس لمواجهة اسرائيل والاستعمار عامة» (ص ٦٤) .

٥ ـ «الشعب الذي تمثلت كل آماله في البطل ، حتى بعد النكسة ، كان يرى ان بقاءه هو الامل الباقي في ازاحة الغمـــة والسير بالسفينة الى بر الامان . وخرجت القاهـــرة برمتها ، برجالها ونسائها ، وشيوخها وأطفالها ، غير مباليـــة بالظلام ولا بالغارات ، وسارت الى بيت البطل تتوسل اليه ان يبقى . وجاءت الملايين من كل فج عميق من انحاء مصر تردد نفس الصرخة . ولم يبرح الناس مكانهم حول بيت عبد الناصر ، الا عندما طلع الصباح التالي ، ورأى البطل ان آمال الامة معلقة به ، وان الشعب مصرّ عليه ، رغم النكسة ، لانه هو الوحيد القادر على تحويلها الـــى نصر» (ص ٩٣) .

٦ ـ «بدأ يرأب الصدع ، ويطهر الانحرافات ، ويكفـــل الحريات ، ويبحث عن الرجال الصالحين ، ويعيد بناء الجيش

الذي ذهب اكثر رجاله وأكثر عتاده ، ويوثق العلاقات بالاتحاد السوفييتي الذي أمد مصر بكل ما يكفي لها اعادة بناء قواتها البرية والجوية» (ص ٩٥) .

٧ ـ «وجاء اليوم الذي شعرت اسرائيل فيه بأن ساعة الصفر تقترب ، وان القوات المصرية اصبحت قادرة على شيء اكثر من الردع ، هو العبور» (ص ٩٩) .

٨ ـ «كان البطل يحس ان الموت يلاحقه ، وانه يريد ان ينجز رسالته الاخيرة ويوقف نزيف الدماء في الاردن ، ويحفظ على الامة العربية وحدتها ، وهي امل النصر قبل ان يموت» (ص ١١٢) .

٩ ـ «وفي الساعة الحادية عشرة من المساء .. روعوا بالنبأ .. روعوا بصوت انور السادات ، باكيا ، ينعي لهم اكبر الآمال في تاريخ مصر والامة العربية . وشقت القلوب ، وخرجت القاهرة كلها .. بكل الملايين الخمسة التي تعيش على ارضها .. تبكي طول الليل .. وأضيفت اليها جموع اخذت تزحف على القاهرة من جميع انحاء الجمهورية ، وفي جميع فجاج الامة العربية .. وظلت الجموع تتكاثر حول الفاجعة الكبرى ، وتصل وفود الملوك والرؤساء وممثلو الشعوب والمجالس النيابيةوالهيئات الشعبية من جميع انحاء العالم ، ليشيعوه الى مثواه الاخير ، في مشهد لم يروع التاريخ بأروع منه ، ولا اشجع منه . وذهب البطل الى لقاء الله . وترك وراءه اروع صفحة في سجل الخلود» (ص ١٣٧ ، ١٣٨) .

بهذه السطور يختتم صالح جودت « قصة كفاح البطل جمال عبد الناصر» ، ولكنه اراد ان يثبت قصيدته التي كتبها غداة وفاة الرئيس ، فنشر على الصفحتين (١٤٠ و١٤١) نصها الكامل نجتزىء منها بعض الابيات فحسب . تحت عنوان «اغنية على قبر البطل» يقول :

**تملأ الاسماع والابصار ايمانا ووعيا**

**كنت الهاما ووحيا**
**ترسم الدرب لشعب شاء ان تحيا ليحيا**
**غير ان الدهر خلاف التمني**
**فاعني ايها الصبر اعني**
**كيف ابكي واغني ؟**

الى ان يقول :

**التمسنا في بطولاتك اشعاعا ووهجا**
**وجعلناك محجا**
**ووجدنا في وصاياك لنا العهد المرجى**
**لخطى المستقبل الحلو الاغن**

من يتصفح الكتاب دون عناء التأمل العميق ، سوف يلاحظ مباشرة انه اشبه ما يكون بمنشورات مصلحة الاستعلامات او مطبوعات التوجيه المعنوي بالقوات المسلحة ، انه يدرج بسهولة في قائمة «كتب بلا مؤلفين» فهو لا يحتاج الى كاتب يؤلفه ، وانما الى ارشيف . ولان الكتاب قد تم انجازه ونشره وتسجيله في شهر واحد بعد وفاة الرئيس ، ولانه ايضا لم يوزع مع الباعة ولم يكتب عليه سعر النسخة ، ولانه طبع على ورق مصقول وامتلأ بالصور النادرة ، على ورق كوشيه .. فان احدا لم يدر به . وقد كان هذا مقصودا !!

ان الذين اختاروا «اسم» صالح جودت ليضعوه على الغلاف، وتعمدوا — لاول مرة — ان يسجل الكتاب بصوته على اشرطة ، كانوا يضربون عصفورين بحجر واحد . العصفور الاول هو الاستجابة لرغبة امير الكويت في تخليد الرئيس الراحل ومساهمته الشخصية في ذلك . والعصفور الثاني هو ثقتهم بلا حدود في عداء صالح جودت لعبد الناصر ، فأعدوا الكتاب وسجلوه بصوته ودفعوا له الشيك — الهدية . ولم يكن مهما لديهم توزيع الكتاب على الاطلاق ، وانما كانت «الوثيقة» هي كل ما يعنيهم من

الامر كله .

ووقع صالح جودت في المصيدة ، فأضاف الى المعلومات الارشيفية التي وضعت تحت تصرفه ، بعض العبارات الانشائية الحماسية . وكان الصوت الذي كلم مديحة يسري في البداية واضحا غاية الوضوح حين تسلمت المخطوط مطبوعا بالآلة الكاتبة ممهورا بتوقيع صالح جودت : الاصل لدينا ولكن احتفظي بهذه النسخة ايضا واعيديها بعد الطبع فورا . وجلس صالح جودت امام الميكروفون ساعات طويلة ، وهو المذيع القديم ، ليسجل على نفسه شهادة حية الى جانب عبد الناصر .

***

ودارت الايام بسرعة مذهلة .. وبعد اقل من ستة اشهر كانت مصر تشهد اول نقطة تحول حاسمة في تاريخها التالي لوفاة الرئيس ..

كانت حركة ١٥ مايو — ايار ١٩٧١ . وقد كان يوما «شخصيا» في حياة صالح جودت ، يوما شخصيا الى اقصى الحدود .

كان حماس صالح جودت لما جرى في ذلك اليوم اكثر عنفا وتوترا من حماس الآخرين . كان حماسا مشوبا بالحقد والثأر والخوف مرة واحدة . نفاقه الماضي لكي يعيش فضحته احداث الساعات الاخيرة من ١٥ مايو ١٩٧١ . لم يكن صالح جودت منافقا حين هب مذعورا من نومه يؤيد ما جرى ، وانما كان مشوقا الى هذا اليوم غاية الشوق ، لولا «سره الخفي» الذي لا يعرفه احد ! القصيدة يعرفها الجميع ويضمونها الى قائمة أشعاره في الملوك والامراء والرؤساء السابقين واللاحقين . اما الكتاب والاشرطة فلم يعرف امرهما الا الاقلون .

واشتبكت أسلاك التليفون من جديد بين القاهرة والكويت . كانت الاصوات جديدة ، ولكن الاجهزة هي هي . وكانت مديحة يسري على الطرف الآخر تقول : ليست لديّ نسخة واحدة من الكتاب ولا من الاشرطة .

يبدو ان جهازا آخر سبق الفرسان الجدد في الاستيلاء على بقية النسخ والتسجيلات . ولم يعد ممكنا تنفيذ حكم الاعدام في الورق المطبوع او الاشرطة ، رغم انها لم توزع على الجمهور العام. وأسقط في يد صالح جودت والذين وراءه !

حتى كان يوم ..

فتح فيه صالح جودت النار على عبد الناصر والناصرية ، قبل علي امين ومصطفى امين والباشوات السابقين والحاليين ، قبل احسان عبد القدوس وموسى صبري وسابا حبشي ووحيد رافت ، فتح صالح جودت النار . قال ببساطة شديدة ان ثورة ٢٣ يوليو لم تتمتع بالشرعية طيلة العشرين سنة الماضية ، نظامها لم يكن شرعيا، وكذلك اجراءاتها وقوانينها ودساتيرها وتشريعاتها. الشرعية تبدأ من ١٥ مايو – ايار ١٩٧١ . وفي عدد «المصور» الصادر بتاريخ ٢١ يونيو – حزيران ١٩٧٤ وتحت عنوان «هل تبقى الثورة الى الابد ؟» اجاب بالنفي معلقا على زيارة الرئيس الامريكي نيكسون بأنها كانت «استفتاء للشعب في رغيف عيشه وفي لون رغيف عيشه ، في النظام الاقتصادي الذي عاشه منذ قيام الثورة ، في الايديولوجية التي فرضت عليه ، والايديولوجية التي يتمناها لنفسه» . ويتساءل في عدد «المصور» بتاريخ ٥ يوليو – تموز ١٩٧٤ عن كلمة اليسار «من اين جاءتنا هذه الكلمة التي روّج لها المروجون خلال السنوات العشرين الماضية؟» وفي عدد ١٦ اغسطس – آب ١٩٧٤ من نفس المجلة يرى في ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكي «جسرا للعبور من نظام الى نظام آخر يحقق مبادىء الديموقراطية الحقة كما ارستها الثورة الفرنسية»

لأن الاتحاد الاشتراكي بوضعه القديم تمتد جذوره الى «نظم الكتلة الشرقية» (!!) ويرى في عدد ١٤ يونيو — حزيران ١٩٧٤ ان «مصر منذ حرب اكتوبر قد قررت ان تكون مصر .. مصر المصرية الخالصة» . وفي العدد ٣١ مايو — ايار ١٩٧٤ وما قبله وما بعده يحكي سيلا من القصص والاساطير والكوارث التي لحقت بعلية القوم (لا بالطلبة والعمال والفلاحين والمثقفين) ويطالب بلجنة تتعقب الذين تولوا الامور «منذ سنة ١٩٥٢ الى اليوم» . ويذكر في عدد ١٩ يوليو — تموز ١٩٧٤ ان المقارنة بين السوفيات والغرب ظالمة للغرب «لان الحفار الذي نستورده من الاتحاد السوفياتي يعيش سنة واحدة ، بينما الحفار الذي نستورده من انجلترا يعيش اكثر من عشر سنوات» . وفي عدد ١٣ سبتمبر — ايلول ١٩٧٤ يخاطب «جلالة الملك» حسين مؤكدا «أقولها بكل تأدب ، لان الايام السود علمتنا ان مخاطبة الملوك والرؤساء بالكلمة الخشنة كانت من اسباب مدلهمة سنة ١٩٦٧ .. وعلمتنا ان الكلمة الحلوة هي التي تقرب الجميع الى مثل النصر الذي حققناه سنة ١٩٧٣» .

ويحتاج الامر الى مجلدات كاملة للاستشهاد بأقوال صالح جودت المأثورة في ثورة ٢٣ يوليو وانجازات ما بعد ١٥ مايو — ايار ١٩٧١ . ذلك ان الرجل — قبل غيره — ارتاد الهجوم على عبد الناصر من موقع الثورة المضادة ، ولأن الرجل — اكثر من غيره — ظل امينا لهذه القضية وحدها منذ ذلك التاريخ الى الان .

وليس مهما ان صالح جودت قد تسلق اعلى المناصب في ظل عبد الناصر ، وانه كان من ادوات السلطة البارزة في الحياة الثقافية ، وانه رغم وجهه القبيح كان مقبولا من كافة المستويات السياسية والتنظيمية والرسمية ، وانه جنى ارباحا هائلة من هذا كله .. ليس مهما القول الاخلاقي بأنه تنكر لاسياده ! انها في خاتمة المطاف «عبرة سياسية» لاية سلطة تنشد الثورة بركائز فكرية للثورة المضادة !! ليس مهما ان ثورة يوليو لم تضر صالح

جودت في رزقه او فكره لحظة واحدة حتى يحقد عليها كل هذا الحقد ، لان كتابه المسجل يرى انها اعظم الثورات وقائدها اخلد الرجال . ليس المهم ايضا اكتشاف «النفاق» في امثال هذه النماذج التي تحيا حياتها صاحبة الجلالة في كل العهود وتأكل فوق كل الموائد .

وانما المهم قبل ذلك كله وبعده : لعبة الاجهزة ! ان الكتاب المحكوم بالاعدام لم يكن تعبيرا حقيقيا عن فكر صالح جودت . واذا كان احد الاجهزة قد استطاع الحصول على «وثيقة مطبوعة مسجلة صوتيا» دفاعا عن عبد الناصر ، فان هذا لم يمنع صالح جودت من كتابة عشرات المقالات ضد عبد الناصر . وهو على استعداد لتسجيل هذه المقالات على اشرطة وتعبئتها في اسطوانات ، وحين هدده شاب كويتي متحمس لعبد الناصر هو احمد ابو مطر بالكتاب والشريطين ، قال لاصدقائه في ركن سميراميس بالقاهرة وهو يقلب مجلة «الرائد» الكويتية :

ــ لقد اعترفت ميمي شكيب امام النيابة والمحكمة انها تدير بيتا للدعارة ، ومع ذلك برئت ساحتها من الجرم المشهود . التسجيلات ليست قرينة ولا دليلا .

علق توفيق الحكيم وهو ينظر في وجه ثروت اباظة بعين ووجه ابراهيم الورداني بعين اخرى :

ــ ولا الكتاب يصلح دليلا .

والحكيم ، كما نعلم ، رجل قانون . ولكنه ايضا يحب الشعر . ولعل الفرق بين كتاب صالح جودت عن عبد الناصر ومقالاته ضد الناصرية ، هي عند صاحب نظرية «التعادلية» كالفرق بين قصيدة صالح جودت القائلة :

**بارك «الفاروق» فيكم قلما**
**لم تحركه الى الزيف يميني**

وقد ظهر البيتان هكذا لاول مرة ، ولكنه حين اعاد طبع «ليالي الهرم» قال :

**بارك «الرحمن» فيكم قلما**

**لم تحركه الى الزيف يميني**

وقصيدته الاخرى ـ تأملوا الفرق ـ التي يقول فيها :

**لم يزل يحمل جرحا من فلسطين الابية**

**قل لهم انا استجبنا لنداء الناصرية**

ام ان توفيق الحكيم لا يحب الشعـــــر ويحب ان يقارن ـ بدهاء ـ بين كتاب صالح جودت وكتابه «عودة الوعي» ؟ انهما الكتابان الفريمان ، ام ان الجهات التي اصدرتهما واحـــدة وان تغيرت العناويــن والاسماء والشيكات ؟

التاريخ وحده سيجيب . ولكن الغاية ووسائلها تبقى واحدة: حين مات عبد الناصر كتب احد خصومه ويدعى صالح جـودت كتابا عن «قصة كفاح البطل» ، وبعد اربع سنوات من رحيله كتب احد مؤيديه ويدعى توفيق الحكيم كتابا ضده . الكتابان صدرا في بيروت والكويت : الاول نشرته وسجلته مديحة يسري ، والآخر نشره محمد المعلم في دار الشروق . والكتابـــان ـ اخيرا ـ لا يحتاجان الى «تأليف» وإمعان للفكر ، وانما هما من قبيل التسجيل الوثائقي في لعبة الاجهزة .

# .. وسقط آخر العمالقة !

خبر صغير تناقلته وكالات الانباء مساء ٢٤ـ٩ـ١٩٧٤ هـو ان جلالة الحسن الثاني ملك المغرب قد انعم على الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري بفيللا خاصة في طنجة ، وفتح له حسابا في اي بنك يختاره بما قيمته مائة دينار يوميا .

كل ما استطاع اعداء الجواهري ان يقولوه ، هو ان المكافأة الملكية التي تلت «وسام الكفاية الفكرية» ـ وقد ناله الشاعر منذ شهور قليلة ـ اكبر من حجم القصيدة التي كتبها في مائة بيت مديحا لمآثر الملك المغربي .. ذلك ان البيت الواحد منها لا يساوي دينارا كل اربعة وعشرين ساعة ! واقصى ما استطاع اعـــداء الجواهري ان يفعلوه هو انهم عادوا بذاكرتهم ـ او ذاكرة آبائهم ـ الى الوراء ليعلقوا ، بان الرجل بدأ حياته شاعرا للبلاط وأنهاها شاعرا للبلاط ، وما بين البداية والنهاية مدح جميع الحكام بغير استثناء ، فما هو الجديد ، وأين المفاجأة ؟!

ولكن اعداء الجواهري ليسوا هم «كل» جمهور الشاعـــر

الكبير ، ولا هم «التاريخ» . ان الشعور العميق بالاسف والحزن، هو الشعور الاقوى والاغلب عند الذين كانوا يطمحون لشاعرهم في السراء والضراء نهاية مغايرة . فرغم كافة الانعطافات المأساوية في حياة الجواهري وشعره ، وقف الرجل في لحظات مصيرية حاسمة الى جانب الشعب والثورة . كذلك كانت اهمية الجواهري انه بمفرده ظل الاستثناء الشعري الوحيـــد الذي يجمع بين الكلاسيكية ونبض العصر والامة . من هنا ينبغي ان يكون شعورنا بالاسف ، لا بالتشفي ، والحزن لا الشماتة .. فالجواهري ، بعد ان يذهب الشخص ، يبقى الشعر ، جزءا لا ينفصل عن تراثنا بكل سلبياته قبل ايجابياته . اي ان عاره سيلحق بنا في خاتمة المطاف لانه منا ، ومجده ايضا لنا .

ولكن «العبرة» ايضا وايضا تظل قائمة ، لا تلغيها اية مشاعر او عواطف وانفعالات . وقد اتاحت لي سلسلة من المصادفات ان استخلص هذه العبرة في حياة الجواهري ومأساته ، منذ كنت في ابريل – نيسان ١٩٦٩ في بغداد عضوا بالوفد المصري لمؤتمر الادباء العرب .. وكان الجواهري قادما من براغ لاول مرة بعد غيبة سنوات طويلة ، وعلى اثر برقية من وزير الداخلية العراقي يطلب فيها «ان يعود شاعر العرب الكبير الى وطنه لانه بحاجـــة اليه !» . وفي العراق – اقول ، لا بغداد وحدها – شاهدت بعيني محبة الجماهير لشاعرهم الغائب. ولمست الموقف الحقيقي للسلطة عن قرب ، وأشهد بكل امانة الضمير والاحساس بالمسؤولية ، ان الحكم العراقي الراهن اعطى الجواهري ما لم يعطه اي نظام عربي آخر لشاعر او اديب في حياته . وهو عطاء ظل الجواهري يترنم به كالمجنون وهو يسرد عليّ تفاصيله ، حين التقيت به بعد اشهر قلائل – في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٩ بالتحديد – في براغ . هذا على الرغم من ان الحكم العراقي كان يعرف الجواهري جيدا، يعرف ان رصيده وحده هو الذي يشفـع له وليس مستقبله ،

يعرف ايضا انه لن يطيق «استقرارا» من اي نوع كان . رغم ذلك اعطاه كافة اسباب الاستقرار المادي والمعنوي . وبعد ايام قليلة من انتهاء المؤتمر الذي القى فيه الجواهري قصيدة دون المتوسط ، سافر الرجل الى براغ. قال انه مضطر للذهاب لتصفية «متعلقاته» هناك .

وقد وفر لي صديقي المناضل مهدي الحافظ ــ السكرتير العام لاتحاد الطلبة العالمي آنذاك ــ عدة جلسات مع الجواهري ، سجلتها في ما بعد بكتابي «مذكرات ثقافة تحتضر» . وفهمت من الشاعر انه بالرغم من ازمة الاسكان الحادة في براغ ، فان الحكومة التشيكية قد وهبته ــ تقريبا ــ منزلا جميلا . وهو الان بالغ الحرج ، لان الدوائر المختصة قد علمت بأن ظروفه مع بغداد قد اختلفت وانه مدعو للعودة الى وطنه ، ومن ثم عليه أن يسلم المنزل . سألت الجواهري بدهشة وبراءة حقيقية : لقد عدت فعلا للوطن ، وقد جئت لتصفي بقايا وجودك هنا ، فما حاجتك الى المنزل ؟ أجابني بدهشة مماثلة ولكن دون براءة : المنزل ؟ وبراغ ؟ والراتب ؟ والاولاد ؟ لن اترك تشيكوسلوفاكيا بأية حال !

ولم أسجل ذلك في حديثي المنشور معه !

وبعد اقل من عامين بقليل ..

وبعد منتصف احدى ليالي سبتمبر ــ ايلول ١٩٧١ كان التليفون في منزلي يدق دقا متواصلا .. غالبت النوم ورفعت السماعة ، واذا بالطرف الآخر على الخط صوت الجواهري ! سألته : هل تتكلم من براغ ؟ اجابني : كلا ! انا هنا في القاهرة ، وصلت توا من المطار ، تجدني في فندق النيل . هنأته بسلامة الوصول وانا اكاد لا اعي شيئا مما قال ولم افهم لماذا جاء ولا كيف ، وقلت له ان الوقت متأخر وانني سأمر عليه في الصباح الباكر قبل ذهابي الى عملي في «الاهرام» . ولكني فوجئت بصوته يعلو ونبرته تنفعل وهو يصر على نزولي فورا .

بدات أصحو وانا افكر . ما الحكاية ؟ الجواهري في القاهرة؟ لقد دعاه لطفي الخولي منذ عامين باسم «الطليعة» ، وكان اسمه مدرجا في القوائم الممنوعة من دخول مصر ، ولكن الوساطة افادت ووجهت اليه الدعوة رسميا . وتذكرت انني سألته في براغ لماذا لم يلب دعوة «الاهرام» و«الطليعة» فأجابني بما لم يخطر على بالي حينذاك مطلقا : ولماذا لا يدعوني يوسف السباعي ؟ لطفي والجماعة اخوان. لكن السباعي هو المسؤول عن الثقافة. أريد دعوة رسمية لا دعوة اخرى ! اريد لمصر ان تدعوني بعد ان حرمت منها عشرين عاما لا مجلة «الطليعة» !.

ولم أنقل هذا الكلام يومها الى لطفي الخولي . وعبثا حاولت اقناعه ان جمعية الادباء التي يراسها يوسف السباعي ليست اكثر رسمية من «الاهرام» . وان «الطليعة» تمثل مصر اكثر مما تمثلها جمعية الادباء . وان يوسف السباعي عنوان كبير للرجعية الادبية وهو شاعر ثوري . وأن عليه الا يتصور الادباء في جمعية الادباء اذا كان يريد ان يقابلهم ، فهم في كل مكان الا في جمعية الادباء . وان وان .. الى أن بح صوتي وتلاشت قواي على الحوار ، فقد رايته مصمما على تلقي دعوة رسمية من «الحكومة» وبالذات من يوسف السباعي !

تذكرت ذلك كله وانا في طريقي الى فندق النيل القريب نوعا من منزلي والساعة تشير الى الثانية صباحا . وفي غمرة اللقاء الحار نسيت كل شيء وعانقته بمحبة حقيقية واصطحبته الى شوارع القاهرة ومقاهيها واحيائها الشعبية ، خصوصا حي الحسين ومقهى الفيشاوي . قابلنا ليلتها امل دنقل وبعض الادباء الشباب الذين التفوا من حوله في مودة صادقة . كانت أشعاره ضد الطغاة منقوشة في القلوب وفوق جدران الزنازين بالسجون والمعتقلات المصرية . وحين عدت اول عام ١٩٧٠ من اوروبا الى القاهرة سألني الدكتور اسماعيل صبري عبد الله

ـ رئيس التحرير بدار المعارف وقتها ـ ما اذا كان من الممكن الاتفاق مع الجواهري على نشر اعماله الكاملة . قلت له لست ادري ، فقد صدرت لهذه الاعمال طبعات مختلفة ، منها طبعتان حديثتان في بيروت ، ولا اعرف نصيبهما من الكمال . ولكن احد الناشرين يتهم الشاعر بأنه باع نفس «الاعمال الكاملة» لناشر آخر في الوقت ذاته . وكان الجواهري في طريقـــه الى ناشر ثالث اكتشف اللعبة في الوقت المناسب . على اية حال وصلت الطبعتان اسواق القاهرة وبيعتا كلتاهما . وكان الشباب اكثر من غيرهم اقبالا على شعره ، رغم انتمائه الفني الى عصور مضت . كانت حركة الطلاب والمثقفين عموما منذ عام ١٩٦٨ قد بعثت الشعـر «الثوري» الى ساحة الوجود النضالي الفاعل . وحين رأى الادباء الجدد الشاعر العجوز بينهم بلحمه ودمه ، فرحـوا به واحاطوه بكل رعاية وحب . حتى عندما سكر القصاص يحي الطاهر عبد الله في «الاتلييه» ـ نادي الكتاب والفنانين ـ وداعب الجواهـــري مداعبة خشنة ، سرعان ما اعتذر وعاد الجو الى الهدوء .

لم اكن قد سألت الجواهري عن سبب حضوره المفاجيء حين سمعته يروي للشباب ليلة وصوله برفقتي انه جاء ليشترك في المهرجان الاول لرثاء جمال عبد الناصر بعد مرور عام من رحيله ، بدعوة رسمية من يوسف السباعي وجمعية الادباء ! لم يشعـــر الرجل طبعا بوقع كلماته على آذان الشباب ، وانما كان يشعـــر فحسب بوقع حضوره بينهم . ولان هذا الحضور كان باعثـــا لسرورهم فقد اكتفى بذلك . كانت جمعية الادباء قررت الاشتراك في الذكرى الاولى للرئيس الراحل بعقد أمسية في القاعة الكبرى للاتحاد الاشتراكي تحييها مجموعة من الشعراء العرب يتقدمهـم صالح جودت .

وهنا يجب ان اتوقف قليلا .. فقد تضافرت مجموعة مـن الظروف التي ادت في النهاية الى وصول الجواهري مطـــار

القاهرة . كان سفير مصر في براغ ـ مجدي حسنين ـ يحب الشاعر ويرغب في ازالة الجفوة غير المبررة بينه وبين مصر . وهي جفوة افتعلتها اجهزة الامن المصرية عام ١٩٥٩ حين وقع الخلاف بين الحكم في العراق والحكم المصري ووضعت اسماء الكثيرين من المناضلين العرب في قوائم الممنوعين . وكان من بينهم اسم الجواهري . ولكن مجدي حسنين كان يرغب ـ وقد تغيرت ظروف عديدة ـ في ان يقوم الشاعر العراقي بزيارة مصر . وابلغ هذه الرغبة الى يوسف السباعي الذي نام طويلا ، رغم كثرة المناسبات ، واستيقظ فجأة ذات يوم . كان «اليوم» مشحونا بالعلاقات المتوترة بين القاهرة وبغداد . وكان «اليوم» ذكرى عبد الناصر الذي منع الجواهري في عهده من زيارة مصر ! هكذا اقبلت المناسبة وكأنها من «القدر» فقام السباعي على الفور بتلبية رغبة السفير المصري في تشيكوسلوفاكيا ـ وكان على وشك مغادرتها ـ ودعا شاعر «العراق» الكبير للاشتراك باحدى قصائده، وهمس لي الجواهري بحذر شديد كانما يبيح لي وحدي بسر خطير : هل تعرف من الذي منعني في السابق من دخول القاهرة؟ ولم ينتظر بل اجاب على الفور : انه علي صبري !

وضحكت في داخلي بمرارة ، فقد باح لي بهذا «السر» بعد ايام مليئة لحد التخمة بالاحداث من حضوره . لم ينتبه الجواهري الى ان احدا ـ ولو هلفوتا ـ لم يستقبله في المطار . ولم ينتبه مرة اخرى الى ان «الاحد» الذي جاءه في التاسعة صباحا موفدا من يوسف السباعي ضابط سابق يدعى عصام الحيني ! كانت الخامسة والنصف صباحا حين عدت الى منزلي وكانت الثامنة والنصف حين عدت اليه . وابتهج عصام الحيني عندما رآني كأني خلصته من ورطة ، معتذرا عن يوسف بك لمشغولياته العديدة ولان الطائرة تخلفت عن موعدها ، وملمحا الى ان «غالي بك فيه البركة .. مش كدة يا فندم ؟»

وذهلت ! لم افهم شيئا ولم أدر بماذا اجيب . ولأن الشعراء عموما نرجسيون وفي مقدمتهم الجواهري ، فقد وجدتني أخدش أوهامه وانا أوجه الحديث الى الضابط السابق اللاحق بمعية يوسف السباعي ، قائلا : لقد استقبل هيكل سارتر عام ١٩٦٧ على سلم الطائرة وضاقت قاعة الشرف بالمثقفين الذين جاءوا لاستقباله . وكانت «الطليعة» هي التي دعت جارودي ومكسيم رودنسون فكانت زيارتهما موضع الحفاوة الشاملة والترحيب العملي الكامل . فهل تقل جمعية الادباء اهمية عن احدى المجلات؟ كان كلامي في الحقيقة موجها الى الجواهري ، ولكني استأنفت الحديث مع الحيني : «انني مفاجأ بزيارة الجواهري ولو انكم قلتم لي ولغيري لاستقبلناه بأكثر مما استقبلنا المفكرين الفرنسيين . وعلى اية حال فأنا أرافقه كصديق فليست لي اية صفة رسمية». واكتفى الضابط المدني الانيق بابتسامة جامدة وهو يعلق في برود مثير «البركة فيك يا فندم» . ثم استأذن معتذرا بموعد عمله مشيرا الى ان دار الادباء قريبة من الفندق واعدا بأنه سيحضر في المساء .

.. وعلى الفور اخذت الجواهري من يده الى «الاهرام» .

لم يكن لطفي الخولي قد وصل مكتبه ، فقمت بتعريفه الى جميع الزملاء في «الطليعة» . لم يكن بالطبع يحتاج الى تعريف. ولكنهم حين رأوا الجواهري بينهم شخصيا أحاطوه بكل خلجات أعصابهم ومشاعرهم الفياضة بالحب . وتلفنت للطفي ولويس عوض . وحضر الناقد الكبير في البداية فرحب بالشاعر الكبير ترحيبا حارا قائلا له : انت آخر العمالقة . والتقط احمد بهجت هذا التعبير فكتب مقالا في «الاهرام» هو خلاصة حديث مع الشاعر . واقبل معين بسيسو ومحمود درويش ويوسف ادريس على التوالي، فأخذوا يترنمون بشعره القديم وذكرياتهم الشخصية مع هذا الشعر .

وكان لطفي الخولي في مكتبه منذ ساعة بانتظارنا ونحن لا ندري فذهبنا اليه . وبعد الاحضان والقبلات ، قال له لطفي : لن أعاتبك على عدم تلبيتك لدعوة «الطليعة» ، ولكن بعد انتهاء دعوة جمعية الادباء فاننا نستبقيك اياما اخرى باسم «الطليعة» . ووافق الجواهري شاكرا . وطلب مني لطفي ان اكون في تصرف شاعرنا فعلق الرجل : انه ابني .

وشرعت الاقلام الوطنية والتقدمية ترحب بمقدمه وتعرف به اوسع الجماهير التي حرمت كلماته النارية زمنا طويلا ، وتطلب اليه اللقاء معها ومع الناس التي تحبه . ولكن مساء ذلك اليوم نفسه شهد نقلة جديدة في السيناريو .. فقد وصل عصام الحيني الى الفندق في المساء وراح يتكلم عن ضرورة انتقال الشاعر الكبير الى «شبرد» اذا لم يكن مرتاحا لهلتون . ثم اصطحبنا الى جمعية الادباء . وكان بالانتظار يوسف السباعي وصالح جودت وابراهيم الورداني وبقية الحاشية . بادره صالح جودت «اهلا استاذنا» واخذه الورداني بالحضن ، اما يوسف السباعي فكان دمثا وناعما ومبتسما في هدوء كعادته . وبدات الدردشة — من جانب صالح جودت — بالهجوم على الشعر الحر فأيده الجواهري مستثنيا عبد الرحمن الشرقاوي — وكان موجودا — والسياب وصلاح عبد الصبور والفيتوري . واحسست من مناخ «المجاملة» ان وجودي سوف يسبب الحرج فاستأذنت معتذرا بارتباط سابق .

لم تمض ساعتان او ثلاث حين اتصل بي الجواهري تليفونيا، من جمعية الادباء ، يطلب مني ان الحق به لانه لا يعرف الطريق الى الفندق . وقام صالح جودت يودعه قائلا «انت في بيتك يا ابو فرات» . ولم اتصور لحظة واحدة ان هذه الجملة نهاية حديث وبداية حدث ، وليست لها علاقة بالوداع التقليدي او الترحيب المصري المعتاد .. حتى قال لي الجواهري في الطريق القصير جدا

من الجمعية الى الفندق : اسمع ، انا هنا لست عدوا لاحد ! لم افهم . شرح : على «الاخوان» ان يفهموا انني هنا ضيف فقط ، او قل انني في بلدي .. وقبل ان أسأله عمن يقصد بالاخـــوان استطرد : وعلى اية حال فانا لست شيوعيا ولم اكن في يوم من الايام . الاخوان بيحبوني ، على عيني وراسي . والجماعة كمـان بيحبوني . وقبل ان أسأله عمن يقصد بالجماعة اضاف : صالح جودت وجماعته طلبوا مني شعر لمجلة الهــلال . وبيحبونـــي صحيح .

لم يترك لي ان اعلق ..

ولم تترك لي كلماته ان انام .. ظللت ساهرا احدق فـــي الفراغ وافكر ، ماذا يمكن ان يكون قد حدث بالضبط ؟ واكلني الندم على انني تركته هاتين الساعتين . ولكني ما ان استيقظت في الصباح حتى دعاني تليفونه الى طعام الافطار . وقبل ان اقول له «صباح الخير» التفت اليّ بعينين زائغتين وهو قادم من آخر القاعة كمن قرر امرا خطيرا وقال : اسمع . سوف ابقى هنا في مصر ، لا شهرا ولا شهرين ، وانما الى الابد . انها حبي الاول والاخير . ابلغ الاخوان – لطفي اقصد – بهذا القرار حتـــــى يتصرفوا !

وبهتّ ! اصبت بالخرس تماما . وحين بدت بادرة حركة على شفتي ولم تفته «الصاعقة» التي المت بي ، قال : طبعا ، هذا سر، سر خطير اقوله لك انت وحدك ، انت موضع ثقتي ، فلربما لا تكون الظروف عندكم مهيأة لبقائي ، فاني ارحل دون ان يعرف احد شيئا .

ولم اجب . ذهبت فورا الى لطفي الخولي .

سردت عليه ما سمعت . نظر اليّ مبتسما وهو يسألني : هل تعرف الجواهري جيدا ؟ انه يتخذ هذا القرار اليوم ويتخذ نقيضه غدا . قل له اهلا به في اي وقت وفي كل وقت وليبق في

مصر ما شاء له البقاء شهرا شهرين . انه يحل في قلوبنا قبل بيوتنا . ولكننا لا نتحمل مسؤولية قراره الذي تحدثني عنه ، لانه هو نفسه لا يعرف مسؤولية الموقف . انه رجل مزاجي غير مضمون .

وفي المساء توجهت الى الجواهري لآخذه الى قاعة اللجنة المركزية بالمقر الرئيسي للاتحاد الاشتراكي . وكانت المنصة تشهد منظرا غريبا : فغالبية الشعراء ممن يكرهون جمال عبد الناصر ان لم يكن بالشفاه فبالقلب وان لم يكن بالشعر فبالنثر وان لم يكن بالعلن فبالسر . اما الشاعر الذي أحب عبد الناصر دون اجر ـ احمد عبد المعطي حجازي ـ فقد أبعدوه عن الامسية . لقد حضر ، ولكنه لن يتكلم . هكذا كان الجو مشحونا منذ البداية . وسقط جميع الشعراء ، سقطوا في مذبحة الكذب . احمد رامي وصالح جودت وغيرهما ممن قضوا العمر ينتحبون على الماضي الملكي ، يمدحون عبد الناصر بلا تحفظ ، جمعوا تراث أسلافهم كله في مديح الولاة والسلاطين والملوك ، وصبوه على رأس عبد الناصر . ما عداه . ما عدا ابو فرات ، فقد فاجأ القاعة بأن الراحل كان «عظيم المجد والاخطاء» وراح يعدد نواحي المجد ومكامن الخطأ ، كما غازل مصر وشعبها غزلا شديدا ، بالاضافة الى براعته التمثيلية في القاء الشعر ، فاهتزت القاعة مرات عدة اهتزازا عنيفا .

كانت ليلة الجواهري بلا منازع ، وكادت تمر بسلام ، لولا ان احمد عبد المعطي حجازي كان فارسا شجاعا فاستوقف صالح جودت والجموع في طريقها الى الباب ، وقال له كل ما يمكن ان يقال في شاعر الملوك والبغايا امام الناس جميعا . وقد تبدى الموقف بأكمله استفتاء جماهيريا ساحقا نجح فيه الشاعر الممنوع من الكلام وسقط فيه الشاعر الكذاب .

كان من الطبيعي ان نذهب مع حجازي الى منزله او الى اي

مكان ، وإذا بأبي فرات يغمزني في ذراعي ويتجه بي الى الخارج ويطلب تاكسيا ، والى الفندق . هرب من الانحياز الى احـــد الطرفين علنا ، واراد ان يسمع مني «الاخبار» . كانت بانتظاره رسالة مغلقة . كانت تحتوي خمسين جنيها مصريا وكلمة صغيرة من مجلة الهلال بتوقيع صالح جودت ، مكافأة له على قصيدتين قديمتين نشرتهما المجلة ترحيبا بقدومه . وكانت «الاهرام» في اليوم السابق اخذت منه قصيدته الجديدة عن عبد الناصر فسألني كم سيدفعون اذا كانت مجلة صغيرة كالهلال دفعت كل هـــذا المبلغ على شيء قديم . ولم اجب . اكتفيت بالقول ان لويس عوض كتب مقدمة رائعة للقصيدة ، وانه لا ينبغي ان يقلق على نفـــاد نقوده لان «الاهرام» ستتكفل بمصروفات اقامته . ودلفت الـى الموضوع الرئيسي وقلت له : الاخوان يرون انك في بيتـــك ولا ضرورة مطلقا لطلب اقامة دائمة ، لان تفسيرها الوحيد هـــو «اللجوء السياسي» . وانت اعرف بالجو الراهن بين القاهـــرة وبغداد .

كان لنا موقفنا المستقل من الصراع المصري العراقي في ذلك الوقت ، وقد بدأ ساخنا قبل رحيل عبد الناصر بقليل . كنت مثلا ، انا وحجازي ورجاء النقاش وصلاح عبد الصبور ولويس عوض ، اصدقاء للاستاذ احمد فرج الله مستشار السفـــارة العراقية في القاهرة . شاب يعشق الفكر والادب والثقافة تعرفنا عليه حين كانت تصلنا عن طريقه دعوات من وزارة الاعلام لحضور مؤتمر او مهرجان . وتوطدت بيننا وبينه صلة شخصية . وكان حظه مع القاهرة سيئا ، لانه كان يحبها حبا خاصا ولكنه عين بها في أحرج الاوقات ، اي والعاصفة في أوجها وسماء العلاقات بين البلدين ملبدة بأكثر الغيوم كثافة . وعندما حوصرت السفـــارة العراقية ذات يوم أثناء التوتر العنيف بين العاصمتين ، كنا نزوره هو وأسرته ، وكان يزورنا في بيوتنا . وحين تأهب لمغـــادرة

القاهرة كتب عنه لويس عوض في الصفحة الثقافية «بالاهرام» كلمة مؤثرة .

كذلك حدث ان زار مصر الاستاذ شفيق الكمالي — وزير الاعلام وقتئذ — وكانت تربطنا به ولا تزال علاقة حميمة . تعلم في القاهرة وعاش بين ناسها ودخل سجونها واحبها كالعاشق من عمق اعماق القلب . ولكنه جاء ايضا والعلاقات بين مصر والعراق في ذروة الازمة . قلت للطفي الخولي ان شفيق الكمالي هنا ، وهو صديق قبل ان يكون وزيرا ، او قل انه رفيق نضال رغم الوزارة. واحب ان نحتفل به . واقترح رئيس تحرير «الطليعة» على الفور ان ادعوه الى «الغداء» . وفي الغرفة المخصصة لكبار الزوار بالطابق العلوي من «الاهرام» كان جميع اعضاء أسرة «الطليعة» يرحبون بضيفهم ويناقشونه في السياسة . وظللت مع حجازي مرافقين لشفيق الكمالي حتى يوم وداعه للقاهرة ، وقد منعنا من مصاحبته الى المطار «حتى لا نتعرض لاي سوء ولو شبهة المؤاخذة» كما قال .

هكذا كان لدينا موقفنا المستقل من الصراع الدائر بين البلدين . عرضته بأمانة على مسامع الجواهري . ولكنه بعصبية قطع ورقة صغيرة بحجم الكف وكتب عليها عدة أسطر وطلب مني توصيلها الى لطفي الخولي وهو يزمجر غاضبا : قل للاخوان انني استغرب ردهم . انني واثق من ان الرئيس السادات يوافق على بقائي هنا ! اريد ان امضي بقية عمري في بلادكم . سوف اجمع شعري واكتب مذكراتي .

وقمت براس مزدحم . شتى الانفعالات ومختلف الافكار تجمعت فجأة . ورحت في الصباح الى لطفي وحكيت له كل شيء . قال لي مستغربا كل هذه الحدة : اذا كان مصمما ، فعليه ان يكتب طلبا . وقاطعنا تليفون من الجواهري ، لم يزد مضمونه عن كلمات الامس . التفت اليّ لطفي وسألني عن «الورقة» التي اعطاني اياها ابو فرات . كنت قد نسيتها . ونزل هو الى مكتب

الاستاذ هيكل ، ونزلت انا الى الدكتور لويس عوض . حكيت له كل شيء فنظر الي متأملا وهو يقول : حتى اذا أصر الجواهري على البقاء ــ واهلا به فمصر بيته ــ فليتم ذلك دون ضجيج اعلامي يسيء اليه . للرجل مكانته وشيخوخته التي يجب احترامها . لا ينبغي بأية حال ان يكون لعبة اجهزة الاعلام ولا ان يكون طعمـــا لشباك الصيد السياسي .

ثم جرت الاحداث بسرعة مخيفة . في الخامسة من مساء هذا اليوم طلب مني لطفي الخولي ان ابلغ الجواهري بموعد هام بعد ساعة في «الاهرام» . وفي السادسة تماما كنت برفقة ابي فرات في مكتب الاستاذ هيكل ، وكان لطفي بانتظارنـــا ايضا . دخل الجواهري حسب الموعد وبقيت خارجا لبعض الوقت . ثم فاجأتني السكرتيرة بأنني مدعو للدخول . كان هيكل يتذاكر مع الشاعر ابياتا من احدى قصائده . وكان يهديه نسخة من المجلد الذي يضم التاريخ المصور لعبد الناصر وقد أصدرته الاهرام في ذكراه الاولى . ثم التفت الي هيكل قائلا : لو تكرمت تذهب مع شاعرنا الكبير غدا في تمام الساعة التاسعة الى القصر الجمهوري في عابدين . بانتظاركما الوزير محمد احمد .

وفي الصباح كانت تنتظر الجواهري مفاجأة لم تخطر لـــه ــ ولي ــ على بال ! حملت «الاهرام» في صدر صفحتها الاولى خبرا يقول ما معناه ان السيد رئيس الجمهورية وافق على منح الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري حق الاقامة الدائمة في مصر . لم اتناول افطاري وتوجهت فورا الى فندق شبرد . كاد الجواهري حين رآني ان يلطم الوجه وهو يصرخ بكلمـــات مدغومة . فهمت منه ان الامر كله كان يجب ان يظل سرا وبمنأى عن شبهة اللجوء السياسي . اتصل به مراسل وكالة الانبـــاء العراقية يستفسر عن جلية الامر . طلب منه الحضور الى الفندق ظهرا . وذهبت معه فورا الى موعده في القصر الجمهوري . كان محمد احمد وزير الدولة لشؤون الرئاسة بانتظارنا . تبادلا كلمات

المجاملة ، ثم التفت الوزير ناحيتي قائلا : وخلال يومين على الاكثر فسوف ينتقل استاذنا الجواهري من الفندق . ثم سأله عن الحي الذي يرغب في الاقامة به ، فأجاب : جاردن سيتي . كان قد صاحب شابا كويتيا تعرف عليه في بهو الفندق ، يطلب العلم في المعهد العالي التجاري ، وكان يسكن في هذا الحي وقد استضافه عدة مرات ، فأعجبته السكنى هناك . وعند خروجنا من مكتب الوزير همس محمد احمد في اذني بأن اتوجه الى المكتب المجاور لآخذ مظروفا مغلقا باسم الجواهري واخبره ان مرتبا شهريا سيصله . واستمهلت ابا فرات لحظة في المشى وعدت اليه بالمظروف . فتحه امامي في التاكسي . كان به مائة جنيه . سألني عما سيفعلون . قلت له سيعطونك مرتبا شهريا ويبدو ان هذا المبلغ عاجل للطوارىء . وبدأ الاضطراب يغشى عينيه والتوتر ينساب الى صوته . سألني كم في العادة يعطون لامثاله ؟ قلت له لا اعرف فهذه هي المرة الاولى في حياتي التي اشهد فيها شيئا كهذا . سألني عن مرتب عبد الوهاب البياتي . قلت له ان البياتي يستعد للرحيل والعودة الى بغداد . سألني عما اذا كان سيقابل الرئيس ، وبدأت افقد الصبر وانفض يدي من المسألة برمتها ، فأنا لا اعرف بالفعل شيئا على الاطلاق . سألني عما اذا كان ممكنا ان يقيد عضوا بالمجمع اللغوي او المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب . قلت له : ابو فرات ، يجب ان تفهم جيدا انني لست مسؤولا وان الموضوع بأكمله يسير في مجرى لا اعلم بدايته ولا نهايته . انت صديقي ، وارجو ان تعفيني من اي احساس بالمسؤولية عن شيء لم اشارك في صنعه وانما اتيح لي ان اشهد ــ بالصدفة وحدها ــ مظاهره الخارجية .. ولعلك تعلم ان عملي لا يسمح لي للاسف بوقت كاف لمصاحبتك رغم سروري لذلك . ولا بد لجمعية الادباء التي تستضيفك رسميا حتى الان او رئاسة الجمهورية التي ستستضيفك بعد ذلك من ان ترتب لك مرافقا او غير ذلك من أمور .

تجهم الجواهري في صمت . وكان مراسل وكالة الانبـــاء العراقية قد ازف موعده فاستأذنت . وفـــــي «لا باس» رأيت الشاعرين عبد الوهاب البياتي وحميد سعيد فلم ارو لهما شيئا مما اعرف ، ولكن خبر «الاهرام» كانت صدمتـــــه على وجهيهما واضحة . في المساء كنا ثلاثة . انا والبياتي وحميد سعيد في بهو شبرد مع الجواهري . راح البياتي يشرح له بشجاعة ولكن في ادب ان هذا القرار يتنافى مع اي منطق ، وان صياغة الخبر تعني اللجوء السياسي بلا لف او دوران ، وانه ليست هناك اية مشكلات بينه ـ اي الجواهري ـ وبين النظام في بغداد تبرر هذا السلوك، بل ان العكس هو الصحيح فقد قامت السلطة من اجله بما لم تقم به اية سلطة لاي شاعر ، وانه لا يجوز استخدامه وقودا في حرب باردة . وكان حميد سعيد صامتا طـــــول الوقت . ولم يجب الجواهري الا بشتائم شخصية للبياتي ، وانه قد افصح لمندوب الوكالة العراقية بكل شيء . ولم يكن «كل شيء» هذا الا انه مفاجأ بخبر «الاهرام» كأي قارىء آخر وان اقامته في مصر محدودة يريد بها أن يلغي اسمه من قوائم الممنوعين نهائيا ، مع تحياته الى العراق حكومة وشعبا .

.. وانتقل الجواهري الى شقة فاخـــــرة بجاردن سيتي ! وأرسل الى السيدة زوجته في بغداد يشرح لها ضرورة بقائه في القاهرة . وبقيت مهمته ان ينفي امام زواره فكرة اللجوء ، وانه سيعين قريبا في المجلس الاعلى للفنون او المجمع اللغوي ، وأخذ ينتظر مقابلة الرئيس التي لم يعده بها احد . وانتهى «المولد» في الصحف التي ظلت تطارده اسبوعا كاملا منذ نهايات سبتمبر ـ ايلول الى بدايات أكتوبر ـ تشرين الاول . صمتت . ولم يعد يتصل به احد . التقدميون وجدوه يوثق ارتباطاته بأعدائهم ، فابتعدوا متسائلين . الرجعيون كانوا يضحكون في اكمامهـــــم شامتين . حوريات الجنة اللاتي تصورهن في خياله انهن سيقعن في غرامه ، تأخرن في الحضور ، ثم تخلفن دون تحديد الاسباب.

وفجأة حضر ابنه الدكتور فلاح ــ ام نجاح ، لست اذكــــر اسمه تماما ــ من بغداد حيث يعمل طبيبا . واشهد ان هذا الشاب الوطني قد وبخ والده الشيخ أمامي توبيخا حادا : تارة لان الزوجة والاولاد لا يطيقون بعده وقد آن الاوان ليستريح ، وتارة اخرى لان الناس البسطاء في العراق صدموا بهذا القرار غير المبرر . وأكد له ان السلطة لم ولن تتخذ ضده اي شيء رغم المفاجأة . وعاد فلاح ــ او نجاح ؟ ــ بخفي حنين !

ولكن «الوحدة» راحت تنسج خيوط العنكبوت حول الرجل العجوز . لم يعد يتصل به احد ، لا يوسف السباعي ولا صالح جودت ولا الآخرون. وانما بقي اتصاله الوحيد ــ مقطوعا ــ بمكتب اللاجئين السياسيين في رئاسة الجمهورية . ذلك انه فوجــيء آخر الشهر بأن احدا لم يسأل ، وان عليه ان يدفع ثمن الكهرباء، وصاحب المنزل الارستقراطي يستفسر عمن سيدفــع الايجار . ويبدو ان البيروقراطية شاركت في صنع المهزلة ، فقد احتــاج الامر لان يطلب مني الجواهري ان أكلم هيكل او لطفي فــــي الموضوع . كلمت لطفي . وصله «احدهم» يحمل مظروفا جديدا وكلمات اعتذار ووعد بأن المشكلة ستنتهي خلال ايام .

قبل انتهاء الشهر الثاني لم تكن المشكلة قد انتهت ! واحس الجواهري بالضياع . وبدوري لم افهم شيئا ، اين بدأ الخيط وكيف تعقد ؟ هل بدأ في خلوته مع السباعي وجودت والورداني، ام في مكتب هيكل ، ام فيهما معا ؟ هل كانت «نزوة» مزاجيــة طارئة لقيت أذنا صاغية واستغلالا سياسيا موقوتا ، ثم «احترقت الورقة» فلم تعد لها قيمة تستحق العناء ؟ من الذي وعد ومن الذي أخلف ؟ ام ان القصة بدات في مكتب السباعي على نحو ما، ثم بدأت من جديد في مكتب هيكل على نحو آخــــر ، فاختلفت البداية وكانت النهاية واحدة ؟.

لا ادري ، فاني لم أر ولم اسمع ولم احضر «اللحظــــــات الحاسمة» في الموضوع ، وقد دارت في مكتبين مغلقين احدهما

بدار الادباء والآخر بدار «الاهرام». كلما ادريه ان شيئا حدث يشبه «الشهوة» في صعودها الى الذروة وهبوطها الى السفح ، في علاقة الجواهري بالنظام المصري ابان شتاء ١٩٧١ . والملفت للنظر ان ما بين تأجج الشهوة من الجانبين وانطفائها المباغت ، تم بسرعة مذهلة ولوقت بالغ القصر .

ثم ..

جاءني ابو فرات ذات صباح بقلب كسير يدعو للاسف والحزن ، يسألني عن كيفية الحصول على بطاقة سفر الى براغ . ادهشني ان بطاقة الدعوة كانت للذهاب وحده وليست للاياب . اتصلت بيوسف السباعي فأمر عصام الحيني بتدبير التذكرة واستوقفني متسائلا : لماذا ؟ التقط الجواهري سماعة التليفون ليقول : سوف انهي متعلقاتي في براغ واعود . ورفع السماعة ثانية ليقول العبارة ذاتها لمن يتصلون به من الرئاسة . ورفعها ثالثة ليرددها على مسامع لطفي الخولي .

وحين سألني لطفي في اليوم التالي ــ مبتسما ــ ما الخبر؟ اجبته : صدق تقديرك للرجل . علق : وقد يهاجم مصر غدا في بيروت . هذا هو الجواهري .

***

نعم ، هذا هو الجواهري .

فحين جاءني معين بسيسو منذ حوالي شهرين يحمل لي صورته وهو يتقلد «وسام الكفاية الفكرية» في البلاط المغربي ، لم افاجأ ولكني حزنت ، كما لم احزن عندما عرفت ان محمود حسن اسماعيل في مؤتمر الادباء العرب بتونس انشد قصيدة للرئيس بورقيبة وكانت «مذبحة المثقفين المصريين» لا تزال دامية.

حزنت وكتبت كيف يسمح الزمن للجواهري بأن يأخذ وساما ، والشاعر المغربي المناضل عبد اللطيف اللعبي في زنزانته

محكوما بعشر سنوات .

وحين تلقيت نبأ الهدية الملكية المغربية يوم ٢٤ سبتمبر ـ ايلول الماضي ، كان الحزن نفسه قد تبدد .. فهذا هو الجواهري اذن «شخصية لم يكن الشعر في حياتها اهم الاشياء ، كما قد يتصور البعض ، ولا كان الشعب ، ولا كانت الثورة . وانما كانت (حياة) الجواهري نفسها ولا زالت اغلى الكنوز التي اقتناها و«عاشها» في هذه الدنيا» كما كتبت عنه منذ اسابيع .

ولكن ، ماذا ينتفع الانسان حقا ، لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟

تلك هي «العبرة» التي يمكن ان تدلنا عليها مأساة الجواهري، بعد ان يذهب .. ويبقى الشعر .

# مؤامرة ١٩٦٥ نجحت في ١٩٧٥

حين خرجت من السجن في منتصف عام ١٩٦٢ وجدتني بالطبع مفصولا من عملي الرسمي في التعليم ، أما الصحافة التي كنت قد امتهنتها قبل ذلك التاريخ بحوالي ست سنوات ، فانها تلكأت في استقبالي بأسلوب مهذب يشي بأن «جهة ما» تعترض على كتاباتي أن ترى النور . واذا كانت أسرتي قد استطاعت أن تتحمل فترة غيابي وراء الاسوار ، فان الوضع لم يعد قابلا للصبر بعد الخروج .

وصرت أكتب مقالا شهريا لمجلة «الآداب» فكان الدكتور سهيل ادريس كريما معي مقدرا للظرف الخاص الذي أمر فيه . وكنت قد انهيت — قبل واثناء وغداة الاعتقال — كتابين احدهما عن المفكر الراحل سلامه موسى ، والآخر عن «أزمة الجنس في القصة العربية» فأخذت مكتبة الخانجي الكتاب الاول ، ونشرت «دار الآداب» الكتاب الثاني . ثم فوجئت بمجلة «الكاتب» وكان يرأس تحريرها في ذلك الوقت احمد حمروش — ولم اكن قد

تعرفت به ـ تتصل بي في شخص سكرتير تحريرهـــــا رافت الخياط ـ ولم اكن تعرفت به ايضا ـ لتطلب مني ان اكتب فيها بصفة منتظمة . كذلك فقد دعاني الاساتذة يحيي حقي وانـــور المعداوي وفؤاد دوارة للاسهام في تحرير «المجلة» .

وهكذا فتحت لي بعض الاذرع الحانية والقلوب الودودة في نهاية صيف ١٩٦٢ الى ان دعاني الدكتور لويس عوض ولطفـــي الخولي لتحرير عمود نقدي بصفحة الراي في «الاهرام» فشعرت ان أزمتي الخاصة في سبيلها للانفراج وانني سوف استأنف عملي الصحفي الطبيعي في القريب . ذلك ان العمل في المجلات الثقافية الشهرية المتخصصة لم تكن عملا صحفيا بالمعنى الحقيقي للمهنة ، وانما كانت مأوى من البطالة ومصدرا للحد الادنى مـــن الرزق وفرصة لنشر بعض الفصول من مؤلفاتي التي يصعب نشرها في الصحافة اليومية او الاسبوعية . وظللت طيلة عام ١٩٦٣ اراوح بين العمود الاسبوعي في «الاهرام» والمقالين الشهريين فـــي «الكاتب» و«المجلة» . وقبيل عام ١٩٦٤ بقليل ـ وكان الافراج عن بقية المعتقلين قاب قوسين او ادنى من التنفيذ ـ اتصل بـــي الدكتور محمد احمد خلف الله الذي عين حديثا مديرا عامـــا للمجلات بوزارة الثقافة .

وكان اتصاله بي حدثا في حياتي .. ذلك انني قرات للرجل كتابه الشجاع «الفن القصصي في القرآن الكريم» ، وكان استاذه الشيخ امين الخولي قد حدثني عنه كثيرا ، خاصة حول «طرده» من الجامعة بعد الحصول على الدكتوراه ، عقابا على افكـــاره الجريئة . اتصل بي خلف الله ليقول ان المطاف انتهى به الـــى وزارة الثقافة ، وأنهم ينوون اصدار عدة مجلات ثقافية اسبوعية وشهرية بالاضافة الى المجلات القائمة ، وانه اختارني للتعاون معه، بل انه يبلغني الموافقة على تعييني مديرا لتحرير مجلة «الشعر» المقترح صدورها اول عام ١٩٦٤ الى جانب عملي الاستشاري في

الهيئة العامة المشرفة على صدور المجلات .

ووقع النبأ عليّ كالصاعقة ..

فالحق انني لا اعرف الرجل على الصعيد الشخصي ، انه في مخيلتي مفكر شجاع ينتمي الى تراث «الاصلاح الديني» في مصر منذ الامام محمد عبده الى الشيخ علي عبد الرازق الى خالد محمد خالد ، وانه الى جانب ذلك مفكر قومي عربي ينتمي الى الاجواء الايديولوجية لحزب البعث. من هنا — تماما — بدأت دهشتي ، فاختياره بالذات مفاجأة . ثم كان اختياره لي وللدكتور عبد القادر القط مدعاة لان تتسع دائرة المفاجأة لتصبح شيئا كالذهول .

لماذا ؟

اجبت بيني وبين نفسي ان على راس وزارة الثقافة رجل ضد الثقافة يدعى عبد القادر حاتم ، فما الذي حدث حتى يفتح صدره بكل هذه الرحابة للمثقفين ؟ وقلت : ربما كان ذلك كله مقترنا بحالة الانفراج التي توشك البلاد على الدخول فيها ، وليس الرجل اكثر من اداة تنفيذ لرغبة اعلى . ولكن قلبي ، رغم ذلك ، بقي متوجسا شرا .

على اية حال فقد بدأت عملي قبيل عام ١٩٦٤ بقليل . كنت التقي يوميا بالدكتور عبد القادر القط الذي عين رئيسا لتحرير مجلة «الشعر» بينما اضطلعت بمهام ادارة التحرير الى جانب باب عن «الثقافة العالمية» كلفني باعداده الدكتور خلف الله لمجلة «الثقافة» الاسبوعية . وكانت الخطة الجديدة هي اصدار مجلتين متخصصتين شهريتين للقصة والشعر ، ومجلتين اسبوعيتين هما «الرسالة» و«الثقافة» .

وكانت المفاجأة الاولى هي اسناد رئاسة تحرير المجلتين الاسبوعيتين الى احمد حسن الزيات ومحمد فريد ابو حديد لانهما كانا يملكان المجلتين قبل الثورة . وكانت المفاجأة الثانية هي اسناد رئاسة تحرير مجلة «القصة» الى ثروت اباظة . وبقيت «المجلة»

على حالها بأيدي يحيى حقي وانور المعداوي وفؤاد دوارة . كذلك كان الاعداد على قدم وساق لاصدار «الطليعة» عن مؤسسة «الاهرام» ولتغيير مجلة «الكاتب» الى منبر سياسي برئاسة احمد عباس صالح . وكانت ابواب السجون والمعتقلات تستعد للافراج عن اليساريين والديموقراطيين .

هكذا بدا الامر «انفتاحا» على مختلف التيارات و«توازنا» بين أشكال التعبير عنها .. فالمحافظون لهم منابرهم والتقدميون لهم منابرهم ، وحرية الفكر والتعبير تصونها وتكفلها روح الانفراج الجديد .

وسألني الدكتور عبد القادر القط : ماذا سيكون معيارنا في نشر الشعر والابحاث النقدية ؟ وقلت : جودة المستوى بغض النظر عن الاتجاه ، أليست هذه هي الديموقراطية بمعناها الليبرالي ؟ وعلق الرجل : نعم . وصمت قليلا كمن يفكر ثم قال : ولكن هذا لا يمنع التوازن بين ما ننشره من القديم والجديد . وصمت مرة اخرى ثم أردف : انهم ارسلوا لنا الاستاذ طاهر الجبلاوي ليساعدنا في أعمال السكرتارية والتصحيح . ولم يكن الخبر جديدا ، فقد أنبأني الدكتور خلف الله به قائلا ان الاستاذ العقاد يوصي بالرجل ، ولم اجد له عملا الا في مجلة «الشعر» .. فقلت له : وماذا في ذلك ؟ انه رجل طيب كالدراويش ، وهو عضو بلجنة الشعر في المجلس الاعلى ، ويستحق المساعدة ، وهو متمكن من تصحيح العروض ، وفي جميع الاحوال هو مفيد ، فاذا لم يكن ، فانه ليس ضارا .

وصدر العدد الاول من مجلة «الشعر» وبقية المجلات القديمة الجديدة في يناير ـ كانون الثاني ١٩٦٤ .

ولم يتحقق للعدد الاول من «الشعر» المستوى الذي كنا نحلم به .. لان الشعر العمودي كان بالغ الرداءة ، والشعر الجديد كان دون المتوسط . والابحاث وحدها كانت على درجة من الجودة.

ولم يكن ثمة بد من دعم الجيد وطرد الرديء ، فأصبح الشعر الحديث ونقده يحتلان الجانب الاكبر من الحيز ، واختل التوازن الشكلي بين المدرستين .

ثم ..

خرج اليساريون من السجون في ابريل ومايو — نيسان وايار — عام ١٩٦٤ وبدأ الكتاب منهم يعودون الى صحفهم او يحاولون ذلك ، ومن لم يكن منهم مقيدا في احدى الصحف راح يبحث عن عمل .. وكان الدكتور حاتم يستقبل بعضهم — بناء على التعليمات — بالترحاب الشديد ، ويفتح لهم مكتبته مشيرا الى مؤلفات ماركس وانجلز ولينين قائلا : انظروا .. هذا انا ، وتلك ثقافتي . انهم في الاتحاد السوفييتي يتهمونني بالتطرف اليساري حين أناقشهم واستشهد قبلهم بلينين . وصدقوني ، المباحث هنا قدمت للرئيس تقريرا تتهمني فيه بالشيوعية . على اية حال ، انها ليست تهمة . أهلا بكم .

كان بعضهم يضحك في سره ، والبعض الآخر لم يكتم الضحك ، والبعض الثالث كان مشدوها لما يسمع . هكذا «الجو» اذن ! فقد كانت الاسطوانة الحاتمية تدار بمجرد دخول يساري الى مكتبه ، حتى ان احدهم راح يمزح معه قائلا انه يشاهد في المكتبة بعض الكتب الماركسية النادرة ويريد استعارتها . وحين خرج قال لاصدقائه : انها الكتب نفسها التي صادرتها المباحث من منزلي !!

المهم ان جو الانفتاح بدأ يشيع في المؤسسات الصحفية والثقافية ، وكان لا بد ان ينتقل بالعدوى الى ادارة المجلات بوزارة الثقافة .. هكذا قلت للسيد المدير العام — الدكتور خلف الله — وأنا أسرد عليه الاسماء التي ارغب في التعاون معها في مجلة «الشعر» وغيرها من المجلات .

وعادت الغالبية العظمى من الاقلام اليسارية الى الصحافة

المصرية . وبدات في مجلات وزارة الثقافة تظهر بعض الاسماء التي غابت عن النشر سنوات طويلة .. ويتصادف – او لا يتصادف – ان المواهب اليسارية في الترجمة والنقد والبحث كانت اكثر من غيرها كفاءة .. وقد اتضح ذلك على الفور على صفحات مجلة «الشعر» ، واحيانا «القصة» واحيانا «الثقافة» ومعظم الاحيان في «المجلة» . ويتصادف – او لا يتصادف – ان المواهب السلفية كانت فقيرة وقليلة وعقيمة ، حتى ان مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» استعانتا بالموظفين الاداريين في ديوان الوزارة ليسودوا الصفحات على اي نحو كان .

وظل الموقف هكذا تسعة اشهر كاملة .. كانت المخازن خلالها تتكدس بأعداد «الرسالة» ، بينما «الشعر» تنفد من الاسواق حال ظهورها ..

وجاءني الدكتور القط ذات يوم بأدب جم ومحبة غامرة – اذ تربطني بالرجل صداقة قوية بالاضافة الى علاقة التلميذ بأستاذه فقد علّمني الكثير – وقال لي : الا يمكن التقليل من الاسماء اليسارية ، وكذلك من الشعراء الجدد ؟

و«لعب الفار في عبّي» كما يقولون . ماذا حدث ؟ لقد كان الاستاذ طاهر الجبلاوي يهمس لي بين الحين والآخر بهذا المعنى ملفوفا في ورق السلفان وبكثير من اللف والدوران . ذلك ان الرجل بالفعل درويش طيب وقد نمت بيننا علاقة الالف والصداقة، وهو يريد ان يصارحني دون أن يصدمني بما يدور في كواليس لجنة الشعر بالمجلس الاعلى . وكنت اظن الامر ثرثرة مقاهي وغيرة الماضي من المستقبل . ولكن لهجة الدكتور القط تحمل في نغماتها حزنا دفينا كشبح النذير .

وفجأة ، وفي وقت واحد ، وقعت حادثتان خطيرتان .

بدات الحادثة الاولى باجتماع طارىء للجنة الشعر بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب ، اصدرت على اثره بيانا يقول :

● ان البلاد عرفت في الآونة الاخيرة موجة من الالحـــــاد والوثنية في الشعر ، ذلك ان الذين يسمون انفسهم بالشعـــراء «الجدد» ليسوا الا حراب مسمومة موجهة الى صدر الاسلام ، فهم يسمحون لانفسهم باستخدام اشارات ورموز مستوحاة من ديانات غير موحدة بالله .

● ان هذه الموجة ليست معادية للاسلام فحسب ، بل هي ضد العروبة ايضا ، لانها تهدم قواعد اللغة والعروض التـــــي ورثناها عن الآباء والاجداد واجداد الاجداد ، وهم يجمحون في العودة بالمخيلة الى أمجاد اقليمية فهم شعوبيون جدد ، لا يأنفون من استخدام العامية احيانا وكسر عنق البلاغة العربية في أغلب الاحيان . ان اللغة هي تراث الامة واخطر مقوماتها . وهؤلاء الذين ينتحلون صفة «الشعراء» قسرا هم أعدى أعداء لغتنا وأمتنا .

● انهم «قرامزة» لا علاقة لهم بالتراب المقدس لهذا الوطن، لانهم يمجدون بطولات حمراء في بلاد غيرنا ، ولانهم يحضون على الحرب بين الطبقات ويحرضون سائر الناس على البغي والمنكـر وانعدام الاخلاق السوية التي ورثناها عن الاقدمين .

● ان لجنة الشعر بالمجلس الاعلى وقد تأسست لصون تراث هذه الامة ولغتها وشعرها من حقها ان تشرف على كافة وسائل النشر والاذاعة التي تصل عبرها هذه «السموم» الى المواطنين ، وهي الاولى بالاشراف على مجلة «الشعر» بالذات، لانها تصدر عن دولة لها تقاليدها وقيمها لا عن بضعة أفراد لهم مطلق الحرية في التعبير عن انفسهم بوسائلهم الخاصة .

هذا على وجه التقريب موجز البيان الذي هبط كالصاعقة على رؤوس الجميع . على رؤوس المواطنين اولا ، ثم على رؤوس الشعراء ، ثم رؤوس المشرفين على المجلات الثقافية .

وكما تصورت بادىء الامر ان ثرثرة الاستـــاذ الجبلاوي لا تعدو كونها غيرة الماضي من المستقبل وأن تحذير الدكتور القط من

قبيل المبالغة والحساسية المرهفة التي يتمتع بها لدرجة التشاؤم، فانني ــ رغم المفاجاة ــ قدرت الامر على انه مجرد تحد من جانب عزيز أباظة وصالح جودت ومحمود غنيم والعوضي الوكيل .

ولكني كنت على درجة هائلة من حسن النية والسذاجة . ذلك ان لجنة الشعر تضم بين صفوفها السيدة ملك عبد العزيز والاستاذ صلاح عبد الصبور . ولجنة الشعر تعرف احمد عبد المعطي حجازي ومحمد عفيفي مطر ومحمد ابراهيم ابو سنة في مصر ، وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي في العراق ، ومحمد الفيتوري وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن في السودان ، ونزار قباني وعلي الجندي وشوقي بغدادي وعلي كنعان ومحمد عمران وممدوح عدوان في سوريا ، وغيرهم من الشعراء الحديثين ــ روادا وشبابا ــ في جميع انحاء الوطن العربي . ويعلم الناس قبل لجنة الشعر ان هؤلاء الشعراء من الطلائع المتقدمة المناضلة عن الامة العربية ، وانهم جميعا مسلمون، وانهم جميعا ضد الاستعمار . وان قضية الشعر الجديد ــ على صعيد الشكل والمضمون ــ هي قضية فكرية واجتماعية تختلف بها هذه الطلائع عن الاكثرية الساحقة من التقليديين ، لاسباب يتصل بعضها بروح العصر وصراع الاجيال وتباين التجربة والثقافة ويتصل بعضها الآخر بطبيعة المرحلة الوطنية والاجتماعية التي يمر فيها الوطن .

ولكني كنت ساذجا . ولم اكن وحدي ، بل ان غالبية المثقفين الوطنيين الذين ذهبوا الى الدكتور حاتم محتجين ، والذين راحوا يكتبون في الصحف والمجلات مدافعين ، لا يقلون عني سذاجة . ذلك أن حوارا ــ حادا او هادئا ــ حول الشعر القديم والجديد لا يثير احدا ، فالصراع دائر حول القضية منذ بداية الخمسينات . ولكن لهجة البيان وصياغته ــ التي قام بها الدكتور زكي نجيب محمود ــ كان يجب ان تنبهنا الى ان شيئا خطيرا ، لا

علاقة له بالشعر – وان اتخذه مشجبا – على وشك الحدوث .

وفي غمرة الصراع الفكري حول الشعر الذي قدم فيه عبد القادر القط وصلاح عبد الصبور واحمد حجازي مساجلات بارزة ، ناداني الدكتور خلف الله بوجه متجهم على غير العادة وقال لي في ايجاز : انني آسف لان ابلغك قرارا مؤلما هو ان الوزارة قد استغنت عن التعاون معك في مجلة «الشعر» وبقية المجلات . ولانك موظف بالمكافأة الثابتة ولست موظفا على درجة مالية ، فقد رتبنا لك الامور المادية بما يرضيك .

وكان هذا الترتيب هو اعطائي مرتب شهر اضافيا . وقد استغربت لان المدير العام ظل مستغرقا في الجانب البيروقراطي من الموضوع ، بينما ظللت انا ساهما في ما يجري حولي بعين جديدة . كمن يفيق من نوم عميق رحت افكر وأرقب بعين مفتوحة .. فبعد هذا اللقاء مباشرة توجه لتسلم مكاني في مجلة «الشعر» الاستاذان محمود حسن اسماعيل وعبده بدوي . وتم استبعاد الاسماء ذات الرنين التقدمي في بقية المجلات ، وانقلبت مجلة «الشعر» كالبهلوان وأصبحت بوقا لشلة لجنة الشعر .

وبعد أسبوع واحد من اقالتي كان الدكتور خلف الله نفسه يترك موقعه في ادارة المجلات ليذهب – بلا عمل – الى ما يسمى مجازا بادارة التخطيط ..

ولم أمت جوعا ، فقد سارع يحيى حقي وانور المعداوي الى لجنة التفرغ ، وحصلت منها على عام كامل بمرتب شهري كاف. ولم يكن العام قد انتهى حين عينت في مؤسسة «الاهرام» ناقدا ادبيا لمجلة «الطليعة» .

وليس ذلك كله مهما . وانما كان المهم حقا هو ما جرى وما يجري .

ورحت بذاكرتي ارصد «علامات» الشهور القليلة الماضية . لم يكن الافراج عن زملائي عملا سهلا . كان صراعا ضاريا في قمة

السلطة . وتأكد لي ذلك بما لا يدع مجالا للشك حين صارحنا عبد الناصر عام ١٩٦٩ عند اجتماعه بأسرة «الطليعة» ــ وقد حضر الاجتماع انور السادات ومحمد حسنين هيكل ــ انه لولاه لكنا ما نزال في الصحراء . لم يكن افراج عام ١٩٦٤ اجماعا اذن ، وانما كان صراعا عنيفا تكلل بالدم على باب الخروج .. فقد افتعلت ادارة السجن معركة مع المعتقلين قبيل ذهابهم راح ضحيتهـــا المناضل الشهيد لويس اسحق غير من جرحوا . هكذا الى اللحظة الاخيرة كان الصراع ملتهبا ، ولم يكن قد انتهى بالطبع بالخروج. مئات من العمال لم يعودوا الى أعمالهـــم ، ومئات من الموظفين الصغار تلكأت اجراءات اعادتهم ، والقلائـــل من ذوي الكفاءات العالية بقوا شهورا في بيوتهم ، ورجال الاعلام عادوا محاصَرين ماديا ومعنويا .

كان قرار الانفتاح على اليسار قرارا علويا . أما قنوات التنفيذ فكانت مسدودة بعشرات المتناقضات . كان اليمين ــ بإجراءات ٦٢ ــ قد تقلص نفوذه على الصعيد الاقتصادي ، ولكن غيـــاب الاشتراكيين في السجون اضاف الى نفوذه رصيدا في مراكز الادارة والاعلام . وكان بقاء حاتم على قمة الاعلام والثقافة ابقاء لذات الاجهزة المعادية لليسار حتى وان رحبت به ملقا لصاحب الامر . ان الدكتور حاتم هو رئيس المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب ، وبيان لجنة الشعر وما ينفذ من اجـــراءات في ادارة المجلات الثقافية ، ليس بعيدا عن اشرافه المباشر .

وهنا استدرت ممعنا النظر في الحادثة الثانية التي وقعت في نفس الوقت . كانت مجلة «الرسالة» قد بدات سلسلة من المقالات بتوقيع المحقق اللغوي المعروف محمود شاكر يرد بها على سلسلة من المقالات كتبها الدكتور لويس عوض في «الاهرام» . كان لويس عوض راح يقارن صور «العالم الآخـــر» في الآداب المختلفة ، وركز البحث في خاتمة الرحلة على رسالة الغفران لابي

العلاء المعري والكوميديا الإلهية لدانتي . وقد أفاض الرجل في ابراز الخيال المبدع والاضافات الخلاقة التي تميز بها عمل المعري ، وان لم يستبعد التأثير والتأثر المتبادلين في الثقافات القديمة . ويستحيل على اي قارىء منصف لاطروحة الدكتور لويس عوض ان يستخلص ترجيحه لان يكون المعري قد سرق من الآداب اليونانية واللاتينية القديمة . ومع ذلك فأي عمل علمي خاصة في مجالات العلوم الانسانية وبصفة أخص في ميدان الادب المقارن ، معرض للنقد والاختلاف والحوار .

وقد بدت مقالات محمود شاكر في الرسالة لاول وهلة وكأنها رد علمي يحترم الراي الآخر . ولكنها سرعان ما تحولت عن هذا المنطلق ، الى منزلقات طائفية ذميمة ، استخدم فيها صاحبها كافة معاجم استعداء السلطة والاتهام بالشعوبية ومعاداة الاسلام الى آخر القائمة . وقد انتقل بمقالاته من الرد على أطروحة «الغفران» الى التعليق على كل ما كتبه لويس عوض في حياته.

تحول الرد الى حملة اسبوعية استهلكت مئات الصفحات ، تدخل فيها الى جانب محمود شاكر مجموعة من الموظفين الصغار، كما انها لم تعد وقفا على لويس عوض وانما على «تيار قبطي في الثقافة المصرية» ! وكان التوقيت مذهلا ، فالحملة على لويس عوض والحملة على مجلة «الشعر» ، اقبلتا معا وكأنهما بتنسيق خفي ..

ومن الطبيعي بعد ان «تطهرت» ادارة المجلات من الاقلام اليسارية ، ان ينفسح المجال واسعا امام هذه النغمة الغريبة على التقاليد الوطنية المصرية .. عزفت لجنة الشعر على الوتر الفني في الشعر الحديث وقالت ان رموز الصليب والتثليث والمسيح وبروميثيوس وسيزيف واوزوريس ، هي رموز مسيحية وثنية تعادي العروبة والاسلام ، وان الانقلاب الموسيقي على الخليل بن احمد الفراهيدي هو ثورة مضادة للعروبة والاسلام. كذلك عزفت

مجلة «الرسالة» على الوتر الفكري في اعمال سلامه موسى ولويس عوض وغيرهما ، وقالت ان التراث هو الاسلام وحده وغيره كفر، بل قال محمود شاكر وجلال كشك وغيرهما ان القومية العربية ذاتها مؤامرة استعمارية ضد الوحدة الاسلامية وأن الدولة العثمانية كانت السلطة القريبة من الله وكتابه الكريم .

وتحولت «الرسالة» الى ما يشبه جريدة «الدعوة» التي كان يصدرها الاخوان المسلمون ، الى ما يشبه المنشورات الداعية الى قلب نظام الحكم . وانهالت البرقيات على رئاسة الجمهورية وجريدة «الاهرام» تطالب باقصاء لويس عوض وتطهير الصحافة كلها من «الكفار الملحدين الحمر» جنبا الى جنب مع المناداة بالاشتراكية الاسلامية . وراح الشيخ محمد الغزالي يخطب في المساجد ضد رسام الكاريكاتير صلاح جاهين الذي كان متحمسا لعلمنة الازهر وتطوير قانون الاحوال الشخصية . وخطب شيخ آخر اثناء زيارة خروشوف داعيا الى «الجهاد» و«الشهادة» ما دامت الامور قد وصلت الى هذا الحد .

ولأن الصراع كان حادا على كافة المستويات حتى قمة السلطة فقد حدث شيء غريب في الوقت الذي بدت فيه بوادر الانفراج، اذ استطاع حلمي سلام ـ رئيس تحرير «الجمهورية» حينذاك ـ بوحي من المشير عامر ان ينقل حوالي اربعين صحفيا الى مؤسسات الاخشاب والاسماك والحلوى والاحذية ، كان من بينهم كتاب مرموقون كعبد الرحمن الشرقاوي والخميسي واحمد عباس صالح وغيرهم ..

وفي هذا المناخ بالضبط ـ عام ١٩٦٥ ـ قامت المنظمات الشيوعية بحل نفسها . كان الامر يبدو ـ فوق السطح ـ مزيدا من الالتفاف حول قيادة عبد الناصر لتوحيد الجهد والاسراع في طريق التحول السلمي نحو الاشتراكية . ولكنه ـ تحت السطح ـ كان يشكل مفارقة تاريخية مؤسية .. اذ كان اليمين المتطرف

يجمع صفوفه تحت الارض وينظم تشكيلاته ويستعد لوثبة مسلحة ضد اليسار والنظام ..

وهكذا فجاة ، بدت البيانات الرجعية ومقالات الفتنة الطائفية وكأن لا علاقة لها بلويس عوض ولا بالشعراء الجدد ولا بمجلة الشعر .. كانت تمهيدا سافرا لمؤامرة صيف ٦٥ التي استهدفت الاطاحة بجمال عبد الناصر . وكانت ضمن المضبوطات في حيازة الاخوان المسلمين قوائم بأسماء الكتاب الوطنيين والتقدميين المطلوب اغتيالهم .

والمفارقة التي عنيتها هي ان الاجراءات الوطنية التي اتخذها عبد الناصر كانت تحتاجالى دعم اليسار بتوحيد صفوفهومنظماته، لا بحلها .. في مواجهة اليمين القوي المنظم . ذلك ان انصهار بعض المناضلين في الاتحاد الاشتراكي ادى الى ذوبانهم في بحر مضطرم الامواج لا علاقة له بالنضال من اجل الاشتراكية . بينما اصبح الشارع الشعبي مفتوحا على مصراعيه لتنظيمات اليمين. بالاضافة الى ان حل التنظيمات الشيوعية لم يساعد الحكم الناصري على حل التناقض الفاجع داخله بين المضمون الوطني والاسلوب السياسي غير الديموقراطي . لقد أقبل حل المنظمات اليسارية ليكرس — رغم أنف النوايا — هذا التناقض وليمنحه شرعية .

المهم ان اليسار الذي لم يتصور قط ان معركة الشعر الجديد ومعركة شاكر — عوض ، تتجاوز الثقافة والافراد ، لم تسمح له الاجهزة بالرد على الاطروحة الطائفية المتفجرة في مجلات وزارة الثقافة ..

وحين أسفرت الفتنة عن وجهها المسلح تصدت لها اجهزة الامن بالسجون والمعتقلات والمشانق . اما «الفكر» فقد ظل خبيء الصدور وحبيس القلوب والعقول . وأما الصراع فقد ظل مستورا بأغلفة براقة من الشعارات .

واكتفى الرئيس عبد الناصر باهداء «وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى» الى الدكتور لويس عوض ..

واكتفى شعراوي جمعة ــ عام ١٩٦٦ ــ بأن يكون اول عمل له في وزارة الداخلية ، هو القبض على جيلين من مثقفي اليسار ..

وحين دخلت معتقل طره في التاسع من أكتوبر ــ تشرين الاول عام ١٩٦٦ كان المشهد أمامي يدعو الى الجنون : يقيم معي في عنبر واحد فوزي جرجس ورؤوف نظمي وابراهيم فتحي وعادل امين وعلي الشوباشي ومحمود عزمي وأحمد فرج ومنصور زكي وعبد الرحمن الابنودي وسيد حجاب وسيد خميس وصبري حافظ ومحمود حشمت وجمال الغيطاني ، وغيرهم عشرات من الشيوخ والكهول والشباب اليساري (وكانوا قد أفرجوا عن لطفي الخولي ومحمد الخفيف وابراهيم سعد الدين وأمين عز الدين بعد يوم او يومين من اعتقالهم) . وفي العنبر المقابل ارى حافظ شيحا وياسين سراج‌الدين وسيف الغزالي من الوفديين الذين أمسكوهم في جنازة مصطفى النحاس . وفي العنابر المجاورة أرى الشيخ محمود شاكر ومئات من الاخوان المسلمين .

بقي بعضنا سبعين يوما بين طره والقلعة ، وبقي البعض الآخر حتى وقعت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ .

***

بالرغم من الهزيمة «البوليسية» لليمين ، الا ان القوى الرجعية في الداخل والقوى الاستعمارية في الخارج استطاعت ان توقع بالنظام هزيمة عسكرية واخرى سياسية . ولم تكن «القوى الرجعية في الداخل» تعني الاخوان المسلمين وحدهم او بقايا الطبقات القديمة وحدها ، وانما كان العمود الفقري لسلطة

النظام قد استضاف من صلبه ومن نخاعه الجاري في العظام عدة «فقرات» سميت تجاوزا بالطبقة الجديدة . انها الطبقة التي تنبه عبد الناصر الى خطورتها واخذ يضرب بعض اجنحتها العسكرية والامنية في ما يسمى بسقوط دولة المخابرات . لذلك ، فـــان وقف مجلات وزارة الثقافة وإقالة الدكتور حاتم وحبس الاخوان المسلمين ــ كل ذلك عام ١٩٦٥ ــ لم يمنع الهزيمة من الحدوث . ذلك ان التناقض المأساوي كان فادحا ، بين مجموع التشريعات والاجراءات والقرارات التي يصدرها عبد الناصر مـــن جانب ، والتركيب الاجتماعي للسلطة وصيغة الاتحاد الاشتراكي مـــــن جانب آخر . وقد ظل هذا التناقض قائما بعد ١٩٦٥ وبعـــــد ١٩٦٧ بل ان الهزيمة هيأت له ــ عمليا ــ مناخا صالحا للازدهار باسم المراجعة والوحدة الوطنية ..

فبدلا من ابراز التناقض الفادح الثمن في جسم النظام وحله ثوريا بالانحياز الى جانب التقدم ، علت الاصوات المتعفنة صائحة بأن الاشتراكية (التي لم تولد قط !) هي السبب ، وان البعد عن الدين (الذي لم يحدث قط) هو السبب ، وأن السلاح الروسي (الذي لم يكن قد استخدم بعد) هو السبب في كارثـــة يونيو ــ حزيران ١٩٦٧ .

ورحل عبد الناصر عام ١٩٧٠ .

وكان المد الرجعي على الصعيدين المحلي والعربي قد بلـــغ ذروته في مجزرة ايلول الاردنية .

وانحل شكلا صراع السلطة في مصر بأحداث ١٤ و١٥ مايو ــ ايار ١٩٧١ ..

وتدعمت الطبقة الجديدة بفئات قادمة من الريف ، ومـــن ذكريات البورصة ..

واشتعلت حركة الطلاب المصريين عام ١٩٧٢ . لم تكن قـــد هدأت منذ فبراير ــ شباط ١٩٦٨ ، ولكنها بعد ان كانت رد فعل

لمحاكمة قادة الطيران اضحت فعلا ثوريا ناقما على تحولات النظام الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ناحية اليمين .

ووقف المثقفون والمهنيون والعمال والفلاحـــون الى جانب الطلاب . وبدت البلاد وكأنها على ابواب «اضراب قومي شامل» .

وعادت نغمة «الدين» تحتل موقع الصدارة بأقلام غير متدينة كأنيس منصور ومصطفى محمود . ثم بدات رياح الفتنة الطائفية تتحرك . ووقف احد المحافظين ــ محمد عثمان اسماعيل ــ ليقول بالحرف الواحد : أعداؤنا ثلاثة هم المسيحيون والشيوعيـــــون واليهود حسب هذا الترتيب . ووقف آخـــر في ندوة علنيـــة بقاعة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ليقول : نريد عقيدتنا ولا نريد سيناء . وبدأ الشيخ عبد الحليم محمود يكتب في «الاهرام» ان أرسطو هو السبب في اندحار الدولة الاسلامية .

واحتدم الصراع ..

وهرعت الى توفيق الحكيم ، وكان قد أتيح لي طيلة السنوات العشر الماضية أن أتعرف عليه معرفة شخصية حميمة ، ولكني لم اره قط على هذه الدرجة من الانزعاج وعنف التعبير عن هـــــذا الانزعاج كما رأيته في هذه الايام الاخيرة ، بل الشهور الاخيرة . واصبح مكتبه في الطابق السادس حيث أقيم بالقرب منه فـــي «الطليعة» منتدى سياسيا صغيرا يؤمه الشباب والكهول والشيوخ ممن تؤرقهم قضية الوطن ليل نهار .

حين خلوت به ذات يوم من تلك الايام العصيبة (٨ــ١ــ١٩٧٣) واغلقت الباب ورفعنا سماعة التليفون ، قال لي هذا الرجل الذي تجاوز السبعين في حدة شاب لم يبلغ العشرين :

● هناك ناس في بلادنا يريدون الرجوع بنا الى مائتي سنة الى الوراء .. ليس هذا تدينا ما نشاهده في التلفزيون ونسمعه في الاذاعة ويمتد أثره الى رحاب الجامعة وملابس الطالبات .. انه «هوس» و«دروشة» و«جنون» تعبيره السياسي المؤكد ان

نتحول الى مجتمع ضد المدنية والحضارة ، مجتمع ينتمي الى اكثر العصور ظلاما .

كانت الكلمات تغلي على لسان توفيق الحكيم ، وانفعـــالات وجهه تتبدل خطوطها والوانها بسرعة الضوء ، حتى انني اضطربت على «قلب» الرجل من فرط الحماس المتوهج بالغضب .. ولكنه راح يزجرني بعنف :

● قل لي ، ماذا تفعلون انتم يا شباب هذا الجيل ؟

ـ انت تعلم ماذا يصنع شباب مصر ؟

قاطعني بقسوة :

● هذا لا يكفي .. العبء كله على طلبة الجامعات ، وحتى هؤلاء بدأت تتسرب بينهم التيارات الخبيثة التي تتلفع بثيـــاب الدين وتخفي أظافرها المتعطشة للدم بقفازات حريرية من السلف الصالح . البنات في كليات علمية كالطب والهندسة بدأن يرتدين «الطرحة» التي يلبسنها النساء في الحج . هذا غير معقول بمصر التي يمتد تاريخها الحضاري الى سبعة آلاف سنة .. سأدعو بأعلى صوت الى تكوين جمعية لحماية الحضارة في بلادي ضد اعداء الحضارة ، أولئك الذين يتهدجـــون بالصلوات والعبادات نهارا ، وفي ظلام الليل تجدهم في شارع الهرم والاحياء الراقية و«الشقق المفروشة» .. ليس هذا «تيارا دينيا» بالمعنى الذي كنا نعرفه ضمن تيارات عديدة في الثلاثينات والاربعينات من هـــذا القرن .. ذلك ان «الدين» كتيار فكري له حق الوجود كغيره من التيارات الفكرية .. ان ما أراه الان ليس كذلك ، انه تيار مدمر لكل قيمة حضارية ، بل هو مدمر للاخلاق نفسها ، حتى بمعناها الديني . ذلك ان الشواهد كلها تقول بأن التحلل والتفسخ والعفن هو الوجه الآخر لعملة «الدولة الدينية» التي ينادي بها البعض الان . الدين كان وسيظل علاقة شخصية بين الفرد وربه ، اما الدولة فشيء آخر ، والبشر وحدهم هم المسؤولون عنها .

كان توفيق الحكيم يتدفق كسيل منهمر ، حاولت ان اهدىء من «معدل سرعة التيار» قائلا :

ـ ما تفسيرك لهذه الظاهرة حتى نضع ايدينا على الجذور ، قبل ان نحاول البحث عن العلاج .. ان جمعية ثقافية لحماية الحضارة فكرة طيبة ، ولكنها فكرة جزئية وعلوية فيما ارى .. اي انها وثيقة الارتباط بنشاط الصفوة العقلية والفكرية ان جاز التعبير . لا بد من البحث عن اشكال اخرى تتصل بالاسباب العميقة ، بالجذور .

في هدوء طارىء اجابني توفيق الحكيم :

● بالطبع ، هناك تراكم سلبيات العشرين عاما الماضية ، رغم الايجابيات التي لا ينكرها احد ، ولكن الهزيمة في ٦٧ فجرت ما كان يغلي في الباطن ودفعت به الى السطح ، هكذا دفعة واحدة. ولكن الهزيمة في حياة شعوب كثيرة كانت نقطة تحول الى الامام والبناء ، وبالتالي فالتيار الفكري والسياسي المرشح بعد الهزيمة للتقدم بانساننا هو عكس ما نراه الان . الانسان المهزوم قد يتشبث بالقوى الغيبية امام الصدمة ، اما ان تتحول هذه القوى الى مشجب نعلق عليه كل خطايانا ، فهو امتهان للعقل البشري من ناحية ، وتجاهل للاسباب الحقيقية التي ادت بنا الى الهزيمة من ناحية اخرى . وصحيح ان مجموع الشعب مسئول عن الهزيمة، ولكن هذا تجريد وتبسيط يبتذل القضية المطروحة .. فنحن جميعا مسئولون حسب موقع كل منا ودوره . ولا شك ان النظام السابق على ٢٣ يوليو كان آيلا للسقوط ، وقد ورث النظام الجديد اعباء ثقيلة من الماضي .. ولكن الصحيح ايضا هو ان النظام الجديد رغم انجازه الكثير قد ضل السبيل في معالجة الكثير من القضايا وفي مقدمتها قضية الديموقراطية وقضية العدل الاجتماعي . ان حرية الفكر والتعبير جنبا الى جنب مع حرية الانسان الاجتماعية لم تلق من الضمانات السياسية

والتنظيمية ما يحول دونهما والعثرات التي تعاظمت قبل الهزيمة، وبعدها للاسف .

قاطعته في اللحظة التي بدات فيها نبرة صوته ترتعش :

ـ يظل سؤالك الهام قائما ، وهو لماذا لم تكن الهزيمة نقطة انطلاق نحو بداية جديدة تستوعب ايجابيات الماضي وتلفـــظ سلبياته وتبنى حياة جديدة ؟

التفت في مرارة نضحت على وجهه ابتسامة قصيرة ومتعجلة، وراح يقول بعينين زائغتين بين الباب والنافذة الواسعة المطلـــة على الشارع المضطرب بشتى التناقضات :

● ان جوهر الاخطاء ظل قائما ، فرفع الشعارات وتغيـــير الاشخاص لا يجدي شيئا اذا ظلت الامور على ما هي عليه ، بل ان ذلك هو الذي يفاقم المشكلات ، فحركات الشباب المتوالية منذ ٦٨ هي احد التعبيرات عن هذا التفاقم ، وحياتنا الثقافية الخالية من المنابر الجادة هي التي تدفع كتابنا الى نشر انتاجهم في عواصم عربية اخرى ، وهي كذلك تعبير آخر عن هذا التفاقم ، والاحداث الطائفية الغريبة على مصر وشعبهـــا وحضارتها تعبير ثالث ، وهكذا .. ذلك ان اصحاب المصلحة الحقيقية في التغيير الى أمام ليسوا ممثلين تمثيلا حقيقيا في الاجهزة والمؤسسات القادرة على احداث التغيير .. لذلك فنحن نستغني باللافتات عن المضمـون وبالوجوه عن الظهور وبالقمم عن القواعد . ان حماية نظامنـــا ـ كمجموعة من التشريعات الاقتصادية والاجتماعية ـ تتطلب عملا ديموقراطيا متواصلا ، يدعم هذا النظام بتطويره ، لان الوجود لا يعرف التوقف ولا يكف عن الحركة ، فهي اما الى الامام وإما الى الخلف .. حتى «محلك سر» هي حركـــة ، وليست جمودا . واعداؤنا كثيرون : الاستعمار الامريكي والصهيونية العالمية ودولة اسرائيل وبعض الانظمة العربية ، وبعض الطبقات الاجتماعيـــة داخل حدودنا تستفيد من تقهقر الوضع ، وهي التي تغـــذي

التيارات المتخلفة التي ترتدي ثياب الدين .

وصمت توفيق الحكيم لحظات طويلة وحدقتا عينيه تتحركان في محجريهما بسرعة مذهلة ولكنها متسقة مع حركة يديه اللتين تتشاجران مع اصابع بعضهما البعض تشاجرا عنيفا ، ثم قال :

● انني أفكر جديا في التوقف عن الكتابة .

فاجأتني العبارة فرحت أنا الآخر في صمت مماثل ، ووضعت راسي على مرفقي .. كنت أسترجع اشياء كثيرة وأفكر ، ولكن اختلاط الالوان والخطوط كاد يبعدني عن توفيق الحكيم ويقربني منه اكثر في وقت واحد . سألته :

ـ كيف ؟

وأجاب :

● لست وحدي .. يجب ان يقف الكتاب رغم تباين اتجاهاتهم الفكرية صفا واحدا ، ونكتب بيانا للدكتور حاتم عما آلت اليه أوضاع حياتنا الثقافية والفكرية والفنية .. ولن ننشر هذا البيان الا اذا تجوهل ووضع في سلة المهملات .. حينذاك لن ننشره فحسب بل نتوقف عن الكتابة التي تكاد ـ في ظل هذا المناخ ـ تصبح بلا معنى .

رفعت وجهي اليه لاطالع سطور الزمن ، وهي تعود بهذا «الشيخ» الى زهرة العمر .. لم يكن في ذلك الوقت البعيد الا عصفورا من الشرق ، اما الان فهو يعيش شبابه الحقيقي ، يعيش عصره وآلام وطنه اكثر كثيرا مما كان يعيشها في تلك الايام التي كان يعمل فيها نائبا بالارياف ، وحاولت ان أستأنف الحديث من زاوية اخرى :

ـ الديموقراطية والعدل الاجتماعي ، هي الاخرى كلمات عامة .. ان الاحتلال الاسرائيلي لجزء من اراضينا هو الصورة المباشرة لجرحنا القومي ، والخلاص من هذا الجرح الدامي يستوجب عملا ديموقراطيا وعدلا اجتماعيا ، ولكن كيف ؟ ان

التوقف عن الكتابة قد يكون احتجاجا لفترة من الوقت ، وقد يصل الى حدود العمل الفردي ، لأن الكثيرين سيرفضون الفكرة من مواقع مختلفة ، فوق انها فكرة تجسد موقف الادباء وحدهم..
ما هو الحل القومي الشامل ؟

● يجب ان نعرف حدودنا كأدباء وكتاب ، اننا لا نكتب برامج لاحزاب سياسية ، اننا ضمير الامة فحسب ، ولسنا اجهزة تنظيمية . معنى هذا الكلام بوضوح انه ليس مطلوبا منا ما قد يكون مطلوبا من طوائف اخرى ، ممارسة العمل السياسي المباشر وظيفتها . اما نحن فيكفينا التنبيه والتحذير والتوجيه والايقاظ.
الحل القومي الشامل بالنسبة لي يعني في المقام الاول ان تقف هذه الامة وقفة رجل واحد ـ مهما كانت التناقضات الاجتماعية ـ في وجه العدوان الهمجي على حضارتنا . ليس معنى ذلك ان نفتعل وحدة الصفوف ، هذا أبعد ما يكون عن خاطري ، ولكني اقول بالحد الادنى من الاتفاق حول اهداف أخطر بكثير من المصالح الموقوتة لبعضنا . والزمن يجري ، وسواء شعرنا بذلك او لم نشعر فهو يجري .. حتى ان طبيعة القضايا تتغير من وقت لآخر . ان «المسألة المصرية» في وقت مضى كانت تعني جلاء الاحتلال البريطاني ، وكانت أيامها الامور واضحة فالملك والانجليز واشباه الاقطاعيين في جانب والشعب كله في الجانب الآخر . في وقتنا لم تعد «المسألة المصرية» هي مجرد المناداة بتحرير سيناء ، فتحرير الانسان المصري الراهن هو الطريق الطويل المرهق الى تحرير سيناء ، وليس العكس . تحرير الانسان المصري من الخوف والوهم والفقر هو دعامتنا الاساسية لتحرير سيناء . واعتقد ان هذه المحاور الثلاثة هي الغالبة على كتاباتي الاخيرة كلها .

قال هذه الكلمات وتنهد بعدها تنهيدة عميقة كزفرة أسى ، ولاحظته يحملق في الفراغ ويمسك كتفي المقعد بكلتا يديه ، ثم

يصوب بصره الي" في خط مستقيم ، وهو يتمتم بما يشبـــــه الهمس :

● لقد لاحظت ترددك في قبول فكرة التوقف عن الكتابة ، او كتابة بيان لوزير الثقافة والاعلام في شأن حياتنا الفكرية .. وقاطعته :

ـ لم أتردد ولكن أفكر معك .

● وأنا الآخر أفكر معك .. ان بيانا عن أوضاع حياتنا الفكرية لا يكفي .. فالدنيا تهدر من حولنا وشبابنـــا خصوصا طلبـــة الجامعات ، يعاني ازمة عميقة .. وليست الافلام الهابطة والمسارح الفارغة والمسلسلات الاذاعية المنحطة واختفاء المنابـــر الجادة الا صورة جزئية لما نجتازه من مشكلات حادة ، علينا ان نواجههـــا بشجاعة .

وصمت طويلا حتى كدت أتصور انه اتم فكرته ، ولكنه مزق تخيلاتي حين قال فجأة :

● لماذا يقتصر البيان على حال الثقافـــة ، ليكن بيانـــا للمسئولين ، ولكن عن الوضع السياسي والاجتماعي بأكمله ، من خلال أحداث الطلبة الاخيرة .

وراح يهز رأسه كمن اكتشف شيئا كان طول الوقت بالقرب منه .. واستمر يهز الرأس على ايقاع الافكار التي تتنازعه ، حتى استقرت اخيرا على ذراعيه وقد تشابكا فوق مكتبه .

ربما كانت تلكلحظة الخلق او الحسم في حياة فكره وفنه.. ولكنه على اية حال لم يكن «يمثل» ، كان يغلي . ربما كانت اكوام من الذكريات قد تكدست مرة واحدة ، وربما كان ركاما مختزنا من التأملات قد سطا على وعيه دفعة واحـــــدة .. وربما .. وربما .. ولكن ما لا شك فيه ان توفيق الحكيم لم يكن وهو يفعل ذلك كله ، من سكان البرج العاجي رغم اقامته في هذا الجناح الذي ندعوه في الاهرام بالبرج .

وانما كان قلب توفيق الحكيم نابضا بأحر الدماء السارية في شرايين شعبه ، وكان عقله يدق الدقات الثلاث السابقة على فتح الستار .

كان هذا الحديث بيني وبين توفيق الحكيم يوم ٨-١-١٩٧٣ . بعدها بثلاثة ايام فقط اصدر بيانه الشهير الذي لم يوقع عليه سوى المثقفين الوطنيين والديموقراطيين واليساريين . كان هؤلاء قد اكتفوا بالبيانات التي اصدروها في نقابة الصحفيين او تجمعات الادباء ، يناشدون فيها الرئيس ان يحول دون الطوفان القادم .

ولكننا صباح ٤ فبراير - شباط ١٩٧٣ فوجئنا بصدر الصفحة الاولى من جميع الصحف المصرية وقد ازدانت بأسماء مجموعة لامعة من الوجوه الثقافية الوطنية والتقدمية مع ديباجة قصيرة تعني انهم فصلوا من عضوية الاتحاد الاشتراكي وبالتالي من اعمالهم الصحفية. وكان لافتا للنظر ان الاسماء نشرت «ثلاثية» ورباعية هكذا : لويس حنا خليل عوض او امير اسكندر بولص . كان الامر لافتا للنظر من عدة زوايا .. فقد وردت هذه الاسماء ضمن القوائم المضبوطة مع جماعة الاخوان المسلمين عام ١٩٦٥ . ومن ناحية أخرى كان بعض الاسماء لا يمكن معرفته كاملا الا من ملفات المباحث العامة .

كان الدكتور حاتم قد عاد الى السلطة معززا مكرما عام ١٩٧١ وكان يوسف السباعي قد اصبح سكرتير عموم الثقافة المصرية في مختلف المجالات الى جانب رئاسة مجلس ادارة دار الهلال محل احمد بهاء الدين ، وأصبح صالح جودت رئيسا لتحرير «المصور». وتشكلت لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكي من بعض كبار المتهمين في جنايات القتل والاختلاس والعمل المشبوه مع جهات عربية وأجنبية .

وهكذا راحت القوائم تصدر الواحدة بعد الاخرى بتنسيق

مكتمل الاركان الثقافية والأمنية والسياسية حتى وصل عـــدد المعزولين ١١١ كاتبا وصحفيا يشكلون أعلى الكفاءات المهنيــــة ــ بغض النظر عن اتجاهاتهم الناصرية والماركسية ــ في الصحافة المصرية . يكفي ان نذكر لطفي الخولي ويوسف ادريس واحمـــد بهاء الدين ورجاء النقاش وصلاح حافظ وعادل حسين وفيليب جلاب ونبيل زكي وحسين عبد الرازق والفريد فرج واحمد عبد المعطي حجازي وابراهيم منصور وأمل دنقل وابراهيم عامر وامينة شفيق وخيري عزيز وميشيل كامل وعشرات غيرهم حتى ندرك حجم المذبحة التي قامت بها اجهزة الثورة الثقافية المضادة .

وقد تنصّل حاتم والسباعي وممدوح سالم وسيد مرعي ومن بعده حافظ غانم ، كل على انفراد ، من ارتكاب الجريمة ، بـــل وبدا بعضهم كما لو كان ضد المجزرة ويعمل على ايقافها .

ولكن الايام كشفت الاصابع الملوثة سريعا .. فقد اصـــدر السباعي بيانا يدين فيه حركة الطلاب ويؤيد اجراءات الدولة ، وقّع عليه ابراهيم الورداني وصالح جودت وعبد العزيز الدسوقي وبعض الموظفين في دار الهلال والمجلس الاعلى لرعاية الفنــــون والآداب وجمعية الادباء . كذلك اصــــدر موسى صبري بيانا مشابها .

وأدهشني ، وغيري ، لحد الفزع أن بعض الاسماء التـــي كانت بالغة الحماس للبيانات ، قد غابت عن القوائم .

وتذكرت ان توفيق الحكيم كان قد أعطاني همسا مقالا مطولا بخط يده لاقراه وأعيده له مشفوعا برأيي . كان عنوان المقـــال «عودة الوعي» وهو مجموعة من الانطباعات الذاتية حول العشرين عاما الاخيرة من حياة مصر والمصريين .

وقد اعدت المقال الى صاحبه مع رسالة قصيرة قلت فيها ما معناه : انت ــ يا استاذي ــ لست مؤرخا ولن تكون ، فلو انك كتبت هذه المعاني في مسرحية لما اعترض عليك احـد من حيث

الشكل ، اذ ان المقال لا علاقة له بالبحث العلمي فهو ليس اكثر من نتف متناثرة لا يعوزها الشتات . اما من ناحية الموضوع ، فان اعمالك المسرحية تكذب افكارك ، فقد كانت «السلطان الحائر» ومن قبلها «ايزيس» ومن بعدها «الصفقة» و«الايدي الناعمة» و«شمس النهار» و«الطعام لكل فم» من الاعمال الدرامية التي واكبت التجربة الناصرية على نحو يختلف تماما عما تقوله في «عودة الوعي». بل ان مقالك في«الاهرام» عند انتخاب عبد الناصر للرئاسة الثانية ، يشكل نقيضا متطرفا لما تقوله في مقالك الجديد . ولست اذكرك بما كتبت حين مات ! ولكني سأذكرك بموقف عبد الناصر منك عام ١٩٥٧ حين راح احمد رشدي صالح في «الجمهورية» ينال من ادبك بأقصى ما يمكن ان يتهم به اديب وهو السرقة من غيره .. فما كان من الرئيس الا ان قلدك أرفع وسام في الدولة ، ثم قال في تصريح شهير «لقد تأثرت برواية عودة الروح تأثرا بالغا» . هكذا لست اراك قد التزمت جانب الصواب فيما كتبت ، ولست ارى داعيا لنشره ، وخاصة في الوقت الراهن حيث تحاول اطراف عديدة ان تغتال ما تبقى من ايجابيات المرحلة الناصرية .

ثم دعاني توفيق الحكيم لمناقشتي فلم أزد شيئا على ما جاء في رسالتي الموجزة . واحتدمت حركة الطلاب والمثقفين بعدئذ، وفوجئنا جميعا باقتحام الحكيم للساحة ، وفرحنا بحماسه المتوقد لما نادينا به آنذاك . وكان هو ـ احقاقا للحق وإنصافا للتاريخ ـ الذي بادر بكتابة بيان المثقفين المصريين الذين أبعدوا عن منابرهم لهذا السبب ، فيما عداه هو ونجيب محفوظ .

وحدث ان وقف اتحاد الكتاب اللبنانيين وقفة شجاعة في مؤتمر تونس ضد القهر واضطهاد الرأي ، فما كان من السيد يوسف السباعي ـ رئيس الوفد المصري ولم يكن قد عين وزيرا

للثقافة ــ الا ان طمأن اعضاء المؤتمر بأن الامور تمضي في طريق الحل . وفي اليوم التالي وصلت جريدة «الاهرام» وفي صدر صفحتها الاولى صورة كبيرة للرئيس السادات وهو يصافح توفيق الحكيم .. وتحت الصورة بضعة أسطر فهم منها ان الامور تسير فعلا في طريق الحل . ولكن توفيق الحكيم لم يذكر لاحد انه في هذا اللقاء قال للرئيس : لقد كتبت شيئا عنوانه «عودة الوعي» فأجابه الرئيس انه يعرف وبدرج مكتبه نسخة ! ولم تكن بالطبع مفاجأة ، فقد عمد الحكيم بعد مناقشتي وغيري حول هذا المقال ، الى نسخه بالاستنسل وتوزيعه في السر بغير توقيع . وكان صديقه ثروت أباظة من اكبر المتحمسين لتوزيع المقال .

ليس هذا مهماً ..

وانما المهم ان أشرف العقول المصرية بقيت مهددة طيلة الاشهر السابقة على حرب أكتوبر في حياتها واستقرارها وامانها حتى أعلن الرئيس السادات عشية الحرب «العفو العام» عن الصحفيين والطلاب ، بإعادتهم الى أعمالهم وجامعاتهم .

ولم يكن ذلك ينهي الصراع ، وانما كان يعني تأجيله .. ولكن ظاهرة خطيرة لم تحدث قط في تاريخ مصر المعاصر ، كانت قد حدثت خلال الاشهر الثمانية ، وهي أن مجموعات متتالية من المع الوجوه الثقافية غابت عن ارض الوطن كلويس عوض ومحمود امين العالم وعلي الراعي وامير اسكندر ونبيل زكي وأحمد عبد المعطي حجازي وابراهيم عامر وسمير كرم وميشيل كامل ومحمود عزمي واحمد حجي وحلمي التوني وطاهر عبد الحكيم ومحيي اللباد وسعد التايه وسعد زغلول فؤاد وابراهيم سعد الدين وامين عز الدين ومحمد انيس ومحمد عجلان والفريد فرج وعبد الرحمن الخميسي وجلال السيد وغيرهم عشرات من الادباء والفنانين والصحفيين ممن دفعتهم ظروف العزل والقهر وانعدام الفرصة

لخدمة الوطن بالرأي الحر وتولي «الخصيان والقردة والحواة» *
مقاليد الامور الصحفية والاعلامية ، دفعتهم هذه الظروف مجتمعة
لهذا «الاختيار» الجديد تماما على الساحـــة الثقافية المصرية .
وقد كان اختيار الغالبية العظمى من هذه الاسماء هو «العمل» في
بقية عواصم الوطن العربي كبيروت وبغداد والكويت والجزائر .
والقلة القليلة هي التي اختارت الهجرة الى اوروبا وأمريكا .

ولم يكن ذلك ايضا وادا للصراع ، فقد تمسكت الاكثرية من
الكتاب الوطنيين والتقدميين بمواقعها النضالية داخل مصر . كان
يوسف السباعي قد أصبح وزيرا للثقافـــة ، وبالتالي تقدمت
الحاشية المصطفاة من الجثث والرمـم المتعفنة ، الى مواقـــع
المسئولية المباشرة في مؤسسات وزارة الثقافة والمجلس الاعلى
لرعاية الفنون والآداب ودار الادباء ، بالاضافة الى الاوضـــاع
الجديدة التي طرأت على الصحافة المصرية منذ مذبحة لجنة النظام
الشهيرة .

واقبلت حرب أكتوبر المجيدة ، ومعهـا اقبلت النتائـــج
السياسية المعروفة . وكما أن هزيمة ٦٧ كانت فرصـــة اليمين
للنيل من ثورة يوليو ومن الفكر الاشتراكي ومن المثقفين اليساريين
ومن الصداقة العربية السوفييتية ، فان انتصار ١٩٧٣ كان ايضا
فرصة الرجعية لتسديد الضربة القاضية لقوى التقدم .

وكان اقصاء محمد حسنين هيكل عن «الاهرام» اشارة مبكرة
الى ما يسمى بالعهد الجديد ، فقد تم هذا الاقصاء وهيكل يحذر
من الارتماء بين أحضان الولايات المتحدة الامريكية . وكان مجيء
علي امين بالذات الى المقعد الشاغر في «الاهرام» ــ ولو لبضعة
شهور ــ اشارة حاسمة الى هوية البديل .

بعدئذ اقبلت التفاصيل من قبيل استكمال الديكور واعادة

---

* اشارة الى قصيدة صلاح عبد الصبور الشهيرة .

ترتيب البيت : عاد الاخوان امين الى قلعة شارع الصحافة الامريكية والمسماة ب «دار اخبار اليوم» ، واستولى صالح جودت على «دار الهلال» ، اما ابراهيم الورداني فقد «ارتفع» الى احد مراكز المسؤولية في «الجمهورية» ، وتوجه احسان عبد القدوس الى «الاهرام» .

وبقيت قلعتان للفكر الوطني والاشتراكي هما «الكاتب» و «الطليعة» ..

واستخدم يوسف السباعي حقه «الشرعي» كوزير للثقافة ، واقال أسرة «الكاتب» واستعدى السلطة على محرريها متهما احدهم – صلاح عيسى – بالخيانة العظمى (!!) ✶ وانفردت العصبة التي كانت في الامس القريب المتهم الاول في مذبحة «الرسالة» و«الشعر» والفتنة الطائفية ، انفردت بالمنابر الثقافية كلها : «الجديد» لرشاد رشدي و«الثقافة» لعبد العزيز الدسوقي و«الكاتب» لصلاح عبد الصبور الواجهة الرخوة ، و«الهلال» لصالح جودت ..

أما «الطليعة» فقد اصبحت لها «ميزانيتها المستقلة» التي تضمن لها الموت البطيء .

ومنذ أوائل ١٩٧٥ حتى الان تفرغ رجال الامن في القبض على الكتاب الوطنيين والتقدميين الذين اختاروا «الداخل» ميدانا للنضال .

ويبدو المشهد الثقافي المصري الراهن ، وكأن مؤامرة ٦٥ قد

---

✶ وقد اعتقلت قوات الامن صلاح عيسى وبعض أفراد أسرة «الكاتب» بناء على توجيهات السباعي التي أثمرت مساعيها الحميدة في حادث بور سعيد حين اراد بعض الادباء الشباب عرض مسرحية لهم فقبض عليهم وكذلك حين ذهبت المباحث للقبض على الكاتب سعد كامل ولما لم تجده علق الضابط المكلف قائلا «غريبة ، لقد أخبرنا يوسف بك السباعي انه هنا» !

أثمرت عام ١٩٧٥ فالمثقفون التقدميون موزعون بين العواصم العربية والمعتقلات المصرية ، او هم في بيوتهم او على أسرّة المستشفيات «مرتاحون» من العمل (!!) .

وهو مشهد مأساوي بحق ، تبدو معه الامور كما لو انها آلت الى انتهاء ، وان الصراع قد حسم لمصلحة اليمين والتخلف والغزوة الاستعمارية .

ولكنها ، على وجه اليقين ، نتيجة خاطئة ! فالصراع لا زال محتدما بل هو في أوج الذروة يدخل رحاب مرحلة جديدة ، فما يظهر لنا من فوق السطح لا يدلنا على ما يضطرم به العمق .

ان الماء يجري تحت العشب .

# خـــاتمة

لعل الحصيلة الختامية لهذه الصفحات القليلة تشير الى جملة حقائق ابرزها :

١ ــ ان تناقضا خطيرا تجرثم في بناء ثورة يوليو ، بين الواجهات الرسمية للثقافة والمنتجين الحقيقيين للثقافة ، بين القائمين على «السلطة» الثقافية ، ومبدعي «الحياة» الثقافية ، وأنه في ظل شعار «اهل الثقة لا اهل الخبرة» اعتلت المواقـــع القيادية في الثقافة المصرية عناصر مضادة بدرجات متفاوتة لحركة الثورة .

٢ ــ ثورة يوليو لم تكن مرحلة واحدة ، بل عدة مراحل تطورت اليها الامور بالفعل ورد الفعل .. وبالتالي فان الكتـــاب والمثقفين الذين لمعوا في مرحلة ما لاتساق أفكارهم مـــع مضمونها لا يجوز الابقاء على سلطاتهم القيادية في مرحلـــة اخرى تتناقض مع افكارهم . ولكن ، هذا هو الذي حدث بكل ما يتوالد عنه من مضاعفات .

٣ ــ ان الانتهازية الاخلاقية التي تدفع شاعرا او كاتبا لان يتلون كل يوم بلون جديد قد استطاعت في ظل الثورة ان تكـون قيمة وقانونا ، وافرخت مع الزمن صفا طويلا من المنتفعين غير المؤمنين ، وهم في أعماقهم ضد الثورة حتى اذا سنحت لهم الفرصة للتعبير الحر عن مكبوتاتهم وثبوا الى مقدمــة المظاهرة لتحطيم كل شيء !

٤ ــ ان غياب ستراتيجية شاملة عن العمل الثقافـــي العام ، وارتباطه بالتاكتيك السياسي المباشر والمرحلة ، قد افسح المجال واسعا للارتجال والاعتماد على غير المتخصصين وغير الثابتين .

٥ ــ ان آفة الآفات هي ازمة الديموقراطية التي تسببت في ان يكون القرار العلوي هو كل شيء ، اما الارض وما عليها فقد تركت للقهر والمصادفات .

# الفهرست

# مؤلفات غالي شكري

| | |
|---|---|
| ١ ـ سلامه موسى وأزمة الضمير العربي | طبعة ثالثة ١٩٧٥ |
| ٢ ـ أزمة الجنس في القصة العربية | طبعة ثانية ١٩٧٠ |
| ٣ ـ المنتمي : دراسة في أدب نجيب محفوظ | طبعة ثانية ١٩٦٩ |
| ٤ ـ ماذا أضافوا الى ضمير العصر ؟ | طبعة اولى ١٩٦٧ |
| ٥ ـ أمريكا والحرب الفكرية | طبعة اولى ١٩٦٨ |
| ٦ ـ شعرنا الحديث .. الى اين ؟ | طبعة اولى ١٩٦٨ |
| ٧ ـ ثورة المعتزل: دراسة فيادب توفيق الحكيم | طبعة ثانية ١٩٧٣ |
| ٨ ـ أدب المقاومة | طبعة اولى ١٩٧٠ |
| ٩ ـ الرواية العربية في رحلة العذاب | طبعة اولى ١٩٧١ |
| ١٠ـ مذكرات ثقافة تحتضر | طبعة اولى ١٩٧١ |
| ١١ـ ماذا أضافوا الى ضمير العصر ؟ | طبعة اولى ١٩٧٢ |
| ١٢ـ عروبة مصر وامتحان التاريخ | طبعة اولى ١٩٧٤ |
| ١٣ـ ذكريات الجيل الضائع | طبعة اولى ١٩٧١ |
| ١٤ـ التراث والثورة | طبعة اولى ١٩٧٣ |
| ١٥ـ ماذا يبقى من طه حسين ؟ | طبعة اولى ١٩٧٤ |
| ١٦ـ صراع الاجيال في الادب المعاصر | طبعة اولى ١٩٧٠ |
| ١٧ـ من الارشيف السري للثقافة المصرية | طبعة اولى ١٩٧٥ |
| ١٨ـ ثقافتنا بين نعم ولا | طبعة ثانية ١٩٧٤ |

اولى